الباب الأول
الموطن والشخصية

الفصل الأول : الموطن : الكوفة :

المبحث الأول : تاريخ بنائها وعمارتها .

المبحث الثاني : الحركة العلمية بها .

المبحث الثالث : الحركة القضائية بها .

الفصل الثاني : ا لشخصية : ابن أبي ليلى .

المبحث الأول : الاسم والنسب والأسرة .

المبحث الثاني : المولد والنشأة .

المبحث الثالث : الشيوخ والتلاميذ .

المبحث الرابع : صلته العلمية برموز الكوفة .

المبحث الخامس : المصنفات .

المبحث السادس : الوظيفة .

المبحث السابع : المكانة العلمية .

بين يدي الباب

لقد فتح محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عينيه على استقرار الأمر للأمويين مع ثورات هنا وهناك يتم إطفاؤها في الأخير [١] . إلا أنه ، بدون ريب ، كان يسمع أحداث التاريخ القريب ، وما مر بالمسرح السياسي من أزمات واضطرابات بعد وفاة عمر بن الخطاب ﷺ إلى أن استتب الحكم لبني أمية .

ولقد عايش انتقال السلطان من بني أمية إلى بني العباس ، وهادن السلطة الجديدة وعمل معها قاضيا ، كما كان قد فعل مع السلطة البائدة .

ولا أحب أن أخوض ، في هذه العجالة ، في تفاصيل الحالة السياسية والأحداث الواقعة في تلك الحقبة ؛ لأن هذا الموضوع قد قتل بحثا من طرف الدارسين : منهم من تناوله فشَطَّ ، ومنهم من عالجه فغلّب العاطفة على وصف الواقع كما هو ، ومنهم من أنصف فالتزم الموضوعية ، فذكر ما للتاريخ الإسلامي وما عليه .

وأنبّه هنا على أن أهل العلم الذين كانوا رموز الأمة قد تأثروا بهذه الأحداث وأثروا في بعضها [٢] .

ويمكن تصنيف فقهاء الكوفة من حيث علاقتهم بما وقع إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : وهو الأعظم ، تعاطف مع علي ﷺ ورأى الحق بجانبه وناصب

---

(١) ينظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٦/ ١٥٠ ، وما بعدها ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت لبنان ، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٧٦ وما بعدها ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٦ ، وكتاب أبي حنيفة لأبي زهرة ط٢/ ١٩٥٥م ، دار الفكر العربي . وينظر أيضا السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان ص ٥٦٤ ، مؤسسة الكتب الثقافية ط ١٤١١ ـ ١٩٩١ ، وفيه : قال ابن حبان بعد ذكر مقتل ابن الزبير ﷺ : «واستقر الأمر حينئذ لعبد الملك بن مروان» .

(٢) ثورة ابن الأشعث تسمى ثورة الفقهاء أيضا .

العداء لبني أمية ، نجد من بين هؤلاء : عبد الرحمن بن أبي ليلى ، والد الشخصية التي ندرس أصول فقهها ، وسعيد بن جبير ، ونجد بعدهما أبا حنيفة .

القسم الثاني : انحاز إلى صف الأمويين ، كعبد الله بن عكيم ، صاحب والد ابن أبي ليلى .

القسم الثالث : التزم الحياد ، ورام الانتظار ، وابتغى الورع ، فلم يتكلم لا في هذا الطرف ولا في ذاك . ومن هذا القسم : شريح القاضي .

القسم الرابع : طأطأ رأسه للزوابع والفتن ، وخضع للغالب ، ورأى الطاعة لمن بيده الأمر .

وأحسب صاحبنا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى من هذا القسم [١] .

وغرضي في هذا الباب أن أوضح المعالم الثقافية التي طبعت الكوفة منذ إنشائها حتى عصر ابن أبي ليلى ، وأُعرّف بشخص ابن أبي ليلى ، وأبدأ بالحديث عن الكوفة . وبالله التوفيق .

(١) تنظر خاتمة هذا الباب .

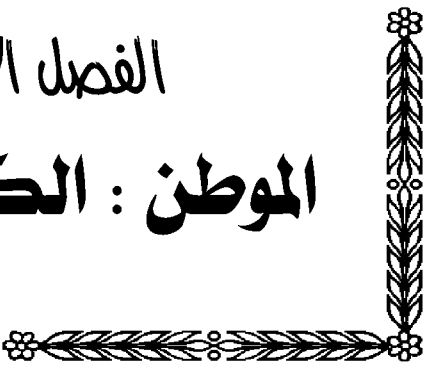

الفصل الأول

الموطن : الكوفة (١)

(١) أُلِّفَت في الكوفة وفضلها كتب كثيرة . ينظر كتاب : فضل الكوفة وفضل أهلها (ص١١) ، وما بعدها ، لمحمد بن علي بن الحسن العلوي الحسني الكوفي ، تح : محمد سعيد الطريح ، مؤسسة أهل البيت ، بيروت ، لبنان .

المبحث الأول
تاريخ بناء الكوفة وعمارتها

مصرت الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة للهجرة ، اختطها سعد بن أبي وقاص ، بإذن من عمر بن الخطاب { [١].

وموقعها ما بين الحيرة والفرات [٢]، قريبة من القادسية [٣] . سميت بالكوفة لأنها تقع على حصباء مختلطة بالرمل ، «وكل حصباء ورمل هكذا مختلطين فهو كوفة» [٤].

وقد قيل : التكوف الاجتماع ، وقيل أيضا :

إن المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفان ، وكان يقال للكوفة سورستان [٥] .

ويرى صاحب الروض المعطار أن الكوفة سميت بجبل صغير في وسطها ، كان يقال له كوفان ، قال : « ويقال لها كوفان أيضا » [٦] .

أما بيئة الكوفة فصالحة ، وماؤها عذب وصحيح ، وأرضها مهيأة للزراعة والنخل والإبل والماشية [٧] .

---

(١) ينظر تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ١٨٩ ــ ١٩٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، والبداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٧٤ ، مكتبة المعارف ، بيروت ط١ : ١٩٦٦م ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٣٦٧ ، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٩٦٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢ / ١٩٠ .

(٣) الروض المعطار في خبر الأقطار ص٥٠١ ، لمحمد بن المنعم الحميري ، تح : إحسان عباس ، مكتبة لبنان (بيروت) .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٨٩ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذري ص٢٧٥ ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م .

(٦) الروض المعطار ص٥٠١ .

(٧) السابق ص٥٠١ . وعند ابن خلدون أن العرب لم يراعوا في اختطاط الكوفة إلا الأهم عندهم ، من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح ، ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ، ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ، ولا غير ذلك ... ينظر تاريخ ابن خلدون ١/ ٦٢٠ ، و١/ ٦٣٩ .

وكان هذا هو السبب في اختيارها دون غيرها . فلقد كان المجاهدون مع سعد في الفتوحات ، وكانوا نازلين بالمدائن فاستوخموها ، « وتغيرت ألوانهم وضعفت أبدانهم لكثرة ذبابها وغبارها ، فكتب سعد إلى عمر في ذلك ، فكتب عمر : إن العرب لا تصلح إلا حيث يوافق إبلها ، فبعث سعد حذيفة وسلمان بن زياد يرتادان للمسلمين «مكانا» مناسبا يصلح لإقامتهم ، فمرا على أرض الكوفة ، وهي حصباء في رملة حمراء ، فأعجبتهما ، ثم كتبا إلى سعد بالخبر ، فأمر سعدا باختطاط الكوفة » [١] .

وفي رواية لابن جرير : أن عمر لما بلغه خبر تغير ألوان العرب ولحومهم ، وعلم أن سبب ذلك وخومة المدائن ودجلة : كتب إلى سعد بأن يأمر رائدي الجيش : سلمان وحذيفة ليرتادا للناس « منزلا بريا بحريا » ، ليس بينه وبينهم فيه بحر ولا جسر ، فسار سلمان « في غربي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة ، وخرج حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة ، فأعجبتهما البقعة » [٢] .

ووُصفت في تاريخ خليفة بن خياط بأنها « بلدة ارتفعت عن البعوضة ، فطأطأت عن البقة ، وطعنت في البرية ، وخالطت الريف » [٣] .

وأول بناء وضع فيها : المسجد ، وابتعد الناس عنه يمينا وشمالا ، وأماما وخلفا ، فبنوا مساكنهم . وكان مسكن سعد وبيوت الأموال : حيال المسجد [٤] .

أما البناء فيها فقد روعيت فيه البساطة وعدم الإسراف : إذْ أَذِن عمر لنزلاء الكوفة أن يقيموا بيوتهم من القصب أول الأمر ـ وكذلك كان الشأن بالنسبة للبصرة

---

(١) البداية والنهاية ٧ / ٧٤ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢ / ١٨٩ ، وينظر الكامل في التاريخ ٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨ ، وفتوح البلدان ص ٢٧٥ .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ص١٣٨.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ٢ / ١٩١ .

التي اختطت قبل الكوفة بقليل ـ . لكن وقع حريق بالمصرين ، وكان ضرر الحريق بالكوفة أشد ، فبعثوا بالخبر إلى عمر ، واستأذنوه في أن يبنوا بيوتهم باللبن ، فأذن لهم في ذلك ، وقال : « افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة ، فرجع القوم إلى الكوفة بذلك » [١] .

والملاحظ أن عمر ﷺ كان يحرص على أن يمر اختطاط الكوفة تحت رعايته المباشرة ، وأنه حرص على أن يكون البناء مطبوعا بالاقتصاد والبساطة . والسبب في هذا أن الكوفة أنشئت أساسا لغرض عسكري جهادي ، وهو أن تكون حمى لثغور الإسلام من جهة العراق ، أشبه بقاعدة عسكرية . والتطاول في البنيان والإسراف في الزخرفة يفوتان هذا الغرض : إذ سيركن الناس إلى أموالهم ويحتفلون بدورهم ، فيفتر الحماس للجهاد ، ويقل الاهتمام بحماية ثغور الإسلام ومواصلة الفتوحات . وهذا الاتجاه واضح في قول عمر : « الزموا السنة تلزمكم الدولة » . ولذلك اعتبرت الكوفة ـ ومعها البصرة ـ مادة الإسلام ، وقرار الدين ، ومسكن المجاهدين ، وجيوش المسلمين الفاتحين [٢] .

وكان عمر يعتبر الكوفة خاصة كنز المسلمين ، إن استمد سكانها أهل البصرة أمدّوهم ، وإن استمدها أهل الشام أمدّوهم [٣] ، وكان يصفهم بـ«رأس العرب» و«وجوه الناس» [٤] .

---

(١) السابق ٢/ ١٩١ .

(٢) ينظر الروض المعطار ص١٠٦ . وينظر كذلك تاريخ ابن خلدون ١/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦ / ١٢٤ في ترجمة زيد بن صوحان .

(٤) فتوح البلدان ٢٧٨ . وفي كتاب : فضل الكوفة وفضل أهلها ، قال عمر : « بالكوفة وجوه العرب » ، وقال : « يا أهل الكوفة ، أنتم جمجمة العرب ورأسها وسهمي الذي أرمي به .
وينظر قول علي ﷺ في (ص٧٠ ـ ٧١) ، من نفس الكتاب .

لكن مع الحرص على بساطة البناء قصد في اختطاط الكوفة حسن التصميم، ودقة التنظيم: فالطرق واسعة «أربعون ذراعا» والأزقة تسمح بدخول أشعة الشمس إلى جميع المساكن «سبعة أذرع» [١]، وكان لكل قبيلة ناحيتها [٢]، وأمر عمر أن تكون «الأسواق على سنة المساجد: من سبق إلى مقعد فهو له، حتى يقوم منه إلى بيته، أو يفرغ من بيعه» [٣].

أما أهل الكوفة وسكانها فلقد وصفهم اليعقوبي بقوله: «أهل الكوفة على قلة أموالهم: أهل تجميل، وستر، وكفاف، وعفاف: ليس في البلدان أشد عفافا منهم ولا أشد تجميلا». وبعد كلمات عن الكوفة أضاف: «بها أئمة القراء الفصحاء الذين ترجع عامة الناس إلى قراءتهم، وفقهاؤها الفقهاء الذين عليهم المعتمد، وهم أهل العلم بالشعر، وفصيح اللغة؛ لأن أهلها عرب كلهم، لم تخالطهم الأنباط، ولا الفرس، ولا الخزر، ولا السند، ولا الهند، ولا تناكحوا في هذه الأجناس، فيفسدوا لغاتهم، وإن أصل الرواية ومعرفة اللغة كان فيهم، ومن رواتهم صار إلى البصرة وغيرها» [٤].

هذا الوصف من اليعقوبي يصدق على معظم سراة أهل الكوفة وعلمائهم ومجاهديهم بدون شك، يعرف ذلك من طالع أخبارهم، وسنذكر أخبار بعض منهم إن شاء الله تعالى.

أما عوامهم وقلة من كبرائهم وعلمائهم فلعلهم يتصفون بما قاله اليعقوبي كما يتصفون بغير ذلك، خاصة بعد مقتل عثمان ﷺ. ولعل بعض ما قاله الحجاج في

---

(١) ينظر تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٩١.

(٢) ينظر تفاصيل تقسيم القبائل على أرض الكوفة في تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٩١ ـ ١٩٢ ـ ١٩٤.

(٣) السابق ٢/ ١٩٢.

(٤) ينظر الروض المعطار (ص ١٠٦).

خطبته بمسجد الكوفة عند ما قدم على العراق أميرا يصدق عليهم قال الحجاج : « والله يا أهل الكوفة والعراق : إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ، وإن أمير المؤمنين نثر كنانته ، فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال ، والله لأحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فكأنكم لكأهل : ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢] »[(١)] .

وقد قيل : إن سعدا قال ، بعد عزله من طرف عمر ، في شأن أهل الكوفة : « اللهم لا تُرْضِ عنهم أميرا ، ولا تُرضِهم بأمير » ، وكان المنصور يذُمّهم « لميلهم إلى الطالبيين ، وإرجافهم بالسلطان »[(٢)] .

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٣٣ .

(٢) فتوح البلدان ص٢٧٢ .

المبحث الثاني
الحركة العلمية بالكوفة

تجِدُ مدرسة الكوفة مصدرها الفقهي في عبد الله بن مسعود ، وعلي بن أبي طالب { [١] . لكن التأثير الأكبر كان لعبد الله بن مسعود ، لتفرغه لنشر العلم ، ولسبقه إلى الكوفة قبل علي بن أبي طالب .

كتب عمر ﷺ لأهل الكوفة عندما بعث إليهم بعبد الله بن مسعود : « إني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وآثرتكم به على نفسي ، فخذوا عنه » . قال ابن سعد : « فقدم الكوفة ، ونزلها ، وابتنى بها دارا إلى جانب المسجد ...» [٢] .

ولم يكن أحد من الصحابة له أصحاب حفظوا عنه ، وقاموا بقوله في الفقه ، إلا ثلاثة : زيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وابن عباس [٣] .

وكان عبد الله بن مسعود وعمر بن الخطاب يمثلان اتجاها واحدا في الفقه : روى ابن سعد أن الأسود بن يزيد كان يلزم عمر ، وكان علقمة بن قيس يلزم عبد الله ، وكانا يلتقيان فلا يختلفان [٤] .

وهذا ما قرره ابن القيم ، في أول كتابه « إعلام الموقعين » [٥] .

أما أركان هذه المدرسة التي أسسها ابن مسعود فهم : علقمة بن قيس (ت٦٢هـ) ،

---

(١) ينظر مجموعة رسائل في علوم الحديث للنسائي ص٤٣ ، تقديم الشيخ جميل علي حسن ، مؤسسة الكتب الثقافية .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ١٣ ـ ١٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥ نقلا عن علي بن المديني .

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٧٣ في ترجمة الأسود .

(٥) ينظر اعلام الموقعين ١/ ٢١ ، تح : عبد الرحمن الوكيل ، دار إحياء التراث العربي .

وعبيدة بن عمرو [١] السلماني (ت٧٢هـ) ، ومسروق بن الأجدع (ت٦٣هـ) ، والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني [٢] ، وشريح القاضي(ت٧٦ أو ٧٨هـ) [٣] ، والأسود بن يزيد (ت٧٥هـ) ، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل ، وعبد الله بن عتبة [٤] ، والربيع بن خثيم (ت٦٣هـ) [٥] .

قال الذهبي : « وروى سفيان بن عيينة عن داود بن أبي هند قال : قلت للشعبي : أخبرني عن أصحاب عبد الله كأني أنظر إليهم ، قال : كان علقمة أبطن القوم به ، وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره ، وكان الربيع بن خثيم أشد القوم اجتهادا ، وكان عبيدة يوازي شريحا في العلم والقضاء » [٦] .

وذكر عن ابن سيرين قوله : « أدركت القوم وهم يقدمون خمسة : من بدأ بالحارث الأعور ، ثنى بعبيدة ، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ، ثم علقمة الثالث لا شك فيه ، ثم مسروق ، ثم شريح ، وإن قوما أخسهم شريح لقوم لهم شأن » .

---

(١) ويقال : ابن قيس . ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٩٣ .

(٢) فيه كلام كثير عند أرباب الجرح والتعديل . ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ١٦٨ ، وتاريخ البخاري الكبير ٢/ ٢٧٣ ، وكتاب الضعفاء الصغير للبخاري ٣٢ ، وكتاب الضعفاء والمتروكين فيه للنسائي ص ١٦٤ ، تح محمود إبراهيم زايد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ط ١ ١٤١٦ ـ ١٩٨٦ ، والجرح والتعديل ، قسم ٢ مجلد ١ ص٧٨ ، وميزان الاعتدال ١/ ٤٣٥ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٢ ، وتهذيب التهذيب ٢/ ١٤٥ . ولعبد العزيز بن الصديق رسالة في توثيقه ، ينظر كتابه : بيان نكث الناكث المتعدي بتضعيف الحارث .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٩٤ .

(٤) مجموعة رسائل في علوم الحديث للنسائي ص ٤٣ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥ ـ ٥٦ ، وينظر مشاهير علماء الأمصار ص ١٦٠ ، رقم الترجمة ٧٣٧ ، تح : مرزوق علي إبراهيم ، مؤسسة الكتب الثقافية ط١ / ١٩٨٧ ، وإعلام الموقعين ١/ ٢٦ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥ ـ ٥٦ . وقال أبو وائل شقيق بن سلمة : « كان شريح يقل غشيان ابن مسعود للاستغناء عنه » ، (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٢) . ومع ذلك فإن إبراهيم قال : « كان شريح يقضي بقضاء عبد الله » ، (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٣) .

وذكر عن إبراهيم النخعي قوله : « كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس القرآن ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم ستة : علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل ، والحارث بن قيس الجعفي » [١] .

العلوم التي كانت تدرس :

القرآن الكريم :

كانت المادة الأهم في درس عبد الله مع أصحابه **القرآن** : حفظا وأداء وفهما ، وإليك طائفة من النصوص تؤكد ذلك :

أخرج ابن سعد بسنده إلى إبراهيم النخعي أن علقمة بن قيس قرأ على عبد الله فقال : « رتل فداك أبي وأمي فإنه زين القرآن » [٢] .

وفي رواية أخرى عن إبراهيم عن علقمة قال : كنت رجلا قد أعطاني الله حسن الصوت في القرآن ، فكان عبد الله يستقرئني ويقول : اقرأ فداك أبي وأمي ، فإني سمعت النبي ﷺ يقول : « **حسن الصوت تزيين القرآن** » [٣] ، وفي رواية له أن علقمة كان يقرأ على عبد الله ، وفي حجر عبد الله المصحف ، وكان علقمة حسن الصوت ، فقال لعلقمة : « رتل فداك أبي وأمي » [٤] .

قال الذهبي : « قرأ الأسود على عبد الله بن مسعود ... » [٥] ، أي قرأ القرآن .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥ ـ ٥٦ ، ٥٧ ، والحارث هذا هو غير الحارث الأعور ، تنظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٦/ ١٦٧ ، وتهذيب التهذيب ١/ ٣٣٦ ، مؤسسة الرسالة .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٦ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٩٠ . وفي إسناد هذا الحديث المروي من طريق ابن سعد : سعيد بن زربي ، وهو منكر الحديث ، وقد صح عنه ﷺ من حديث البراء بن عازب : « **زينوا القرآن بأصواتكم** » . أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٥ و ٣٠٤ ، وأبو داود رقم ١٤٦٨ ، والنسائي ٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠ ، وابن ماجه رقم ١٣٤٤ ، وينظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨ مع هامشه .

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٩ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢ .

وقال يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح قال : قرأ يحيى بن وثاب على عبيد بن نضيلة ، وقرأ عبيد بن نضيلة على علقمة ، وقرأ علقمة على عبد الله ، فأي قراءة أصح من هذه؟ وقال غير يحيى بن آدم : إن عبيد بن نضيلة قد قرأ على عبد الله بن مسعود ، ثم قرأ على علقمة بعد ذلك [١] .

وربما طرح ابن مسعود المسألة على أصحابه ليختبر علمهم بتفسير القرآن . يوضح ذلك قول أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل : « قال لي ابن مسعود : يا أبا ميسرة ، ما تقول في الخنس الجوار الكنس؟ قال : قلت : لا أعلمها إلا بقر الوحش . قال : وأنا لا أعلم فيها إلا ما قلت » [٢] .

وكانت طريقة الإقراء أن **الطلبة يتعلمون عشر آيات** ، لا يجاوزونهن إلى العشر الأخريات حتى يعلموا ما فيهن من الأحكام ، والحكم ، والإرشادات ، ويعملوا بهن ، مما يجعل تعليم القرآن مرتبطا بالعمل به . وهي الطريقة التي كان ينهجها الصحابة في عهد رسول الله ﷺ [٣] .

الفقه :

ما يتعلق بالعبادات من صلاة وحج ، وكذلك ما يتعلق بالحلال والحرام ، كل ذلك كان حاضرا في درس عبد الله بن مسعود : روى ابن سعد بسنده عن الأسود بن يزيد قال : « لقد رأيت عبد الله يعلم علقمة التشهد كما يعلمه السورة من القرآن » [٤] .

وهو ما كان يفعله النبي ﷺ مع الصحابة كما روى ذلك ابن مسعود نفسه [٥] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ١١٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ١٠٦ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ١٧٢ .

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٩.

(٥) ينظر صحيح مسلم (٤) ، كتاب الصلاة (١٦) ، باب التشهد في الصلاة .

« وكان عبد الله وعلقمة يصفّان الناس صفّين عند أبواب كندة ، فيقرئ عبد الله رجلا ويقرئ علقمة رجلا ، فإذا فرغا تذاكرا أبواب المناسك وأبواب الحلال والحرام ... » [١] .

اللغة :

وقد تثار في درس عبد الله قضايا في اللغة العربية : هذا ما نستفيده مما أخرجه ابن سعد من أن زر بن حبيش كان أعرب الناس ، وكان عبد الله يسأله عن العربية [٢] .

التربية وتهذيب السلوك الفردي في درس عبد الله :

كان عبد الله بن مسعود يهتم بأمور طلبته وبتزكية نفوسهم بالوعظ والإرشاد : يروي الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن يزيد قال : دخلت مع علقمة والأسود على عبد الله ، فقال عبد الله : كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وِجاء** » . وفي رواية لمسلم : « قال عبد الرحمن : وأنا شاب يومئذ فذكر حديثا ، رأيت أنه حدث به من أجلي » [٣] .

فانظر كيف أرشد عبد الله رضي الله عنه عبد الرحمن بن يزيد إلى الزواج : بإبانته محاسنه وأهدافه وغاياته ، وكيف نبهه إلى الحل إذا كان غير مستطيع . وهذا الإرشاد والتنبيه لم يكونا مباشرين ، بل عبارة عن تحديثه مع صاحبيه : الأسود وعلقمة ، بحديث عن رسول الله ﷺ ، وذلك لتكون الاستجابة أسهل وقبول النصيحة أيسر .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ١٠٥ .

(٣) ينظر صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، الباب الثالث ، الحديث رقم ٥٠٦٥ ، وصحيح مسلم ١٦ ، كتاب النكاح الحديث (٤) .

ولقد كنّى عبد الله علقمة أبا شبل ، ولم يولد له [١] ؛ وهي معاملة في منتهى اللطف من عبد الله يخص بها أخص تلامذته الذي كان عقيما لا يولد له . وهذا يذكرنا بتكنية الرسول ﷺ أعز نسائه : عائشة < بأم عبد الله ، ولم تلد .

أما الوعظ فقد خصّص له يوم الخميس ، وكان أصحابه يودّون لو وعظهم كل يوم ، فبين لهم أن الوعظ كل يوم ليس من السنة ، وأن ذلك يدخل السآمة على القلوب : روى البخاري عن أبي وائل «شقيق بن سلمة الأسدي» [٢] قال : « كان عبد الله يذكّر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم . قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكرَه أن أُملّكم ، وإني أتخوّلكم بالموعظة ، كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا » [٣] .

ومن وعْظِه ما روى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن عكيم [٤] قال : « سمعت عبد الله بن مسعود بدأ باليمين قبل الحديث ، قال : والله إن منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة » . قال : وفي الحديث طول [٥] .

ورغبهم في قيام الليل فقال : « أعِدُّ للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » [٦] .

وكان ابن مسعود يُقرِّب ويُدني من يستحق التقريب والإدناء ، ويُبعِد ويُقصِي من حقّه الإبعاد والإقصاء : فكان الربيع بن خثيم إذا دخل على ابن مسعود لم يكن له

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٦ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥ .

(٢) من الطبقة الأولى الذين أخذوا عن ابن مسعود : ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٩٦ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب العلم ، باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة ، الحديث الرقم ٧٠ .

(٤) من الطبقة الأولى الذين أخذوا عن ابن مسعود . ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ١١٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ١١٤ .

(٦) طبقات ابن سعد ٦/ ١٩٩ . وينظر سورة السجدة الآية ١٦ .

إذن لأحد حتى يفرغ كل واحد من صاحبه [١] .

وكان يقرب أبا العُبَيْدَيْن : معاوية بن سبرة بن حصين [٢] . ودخل أبو عمر زاذان الكندي [٣] (ت٨٢هـ) على عبد الله ، وقد سبقه الناس بالمجلس فقال له : أدنيت أصحاب الخز ، فقال : ادنه . فأجلسه إلى جنبه [٤] . وقال الحارث بن سويد : « إن كان الرجل ليتبعنا إلى عبد الله ، فما يقبله : يرده » .

ومن النصوص التي تبين منهج ابن مسعود في تربية النفس بيانا رائعا ما روى ابن جرير بسنده إلى عرفجة الثقفي [٥] قال : « استقرأت ابن مسعود : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] ، فلما بلغ : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٦] ، ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه ، وقال : « آثرنا الدنيا على الآخرة » ، فسكت القوم فقال : « آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، واخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل » .

قال ابن كثير : « وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو ، والله أعلم » [٦] .

من هنا يعلم أن عبد الله بن مسعود كان بحق معلم أهل الكوفة ومربيهم ، ولذلك كان أصحابه القدوة في العلم والعمل : فكان علقمة أشبه الناس هديا

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ١٨٢ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٨ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ١٩٣ .

(٣) تاب على يد ابن مسعود . تنظر القصة في سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨١ .

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ١٧٨ .

(٥) روى عن علي وعبد الله . ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ١٨٠ ، وتهذيب التهذيب ٣/ ٩١ مؤسسة الرسالة .

(٦) ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ، وكذلك تفسير ابن جرير فيها أيضا .

وسمتا بعبد الله [١] ، فإذا رأيته فلا يضرك ألا ترى عبد الله [٢] ، كان من الربانيين [٣] .

قال فيه الذهبي : « ولازم ابن مسعود حتى رأس في العلم والعمل ، وتفقه به العلماء ، وبعد صيته » [٤] .

الربيع بن خثيم بن عائذ : كان مثله : إماما قدوة في الورع والعبادة والزهد والوعظ ، قال له عبد الله : « يا أبا يزيد لو أن رسول الله ﷺ رآك لأحبك ، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين » [٥] .

وأتي عبد الله بشراب فقال : « اعط علقمة ، أعط مسروقا » ، فكلهم قال : إني صائم ، فقال : ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٧] [٦] .

وكان الأسود بن يزيد ومسروق بن الأجدع يضرب بعبادتهما المثل [٧] ، وقال الشعبي : « ما رأيت قوما قط أكثر علما ولا أعظم حلما ولا أكف عن الدنيا من أصحاب عبد الله ، ولولا ما سبقهم به الصحابة ما قدمنا عليهم أحدا » [٨] .

وتلاحظ أن جل فقهاء الكوفة مذكورون عند أبي نعيم في كتابه «حلية الأولياء» .

لكن لا يعني مما قدمنا عنهم أنهم كانوا عبادا زهادا في خلواتهم منقطعين عن الناس ، لا يسعون في كل ما يخدم الإسلام والمسلمين؛ فهم كانوا إضافة إلى صفاتهم السابقة في طليعة المجاهدين في الفتوحات الإسلامية ، يعرف ذلك من طالع

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٩١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤ .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ١٨٢ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٨ ، ٢٦١ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤ .

(٧) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٠ .

(٨) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٢ .

أخبارهم في كتب التراجم [١] ، وكانوا يجاهرون بالمعارضة لمن انحرف عن خط العدل والاعتدال . وهناك ثورة تعرف في تاريخ الإسلام بثورة ابن الأشعث ، أو ثورة الفقهاء ، لأن كثيرا من علماء الكوفة انضموا إلى هذه الثورة ، كالشعبي وسعيد ابن جبير ، ومنهم من مات فيها كعبد الرحمن بن أبي ليلى والد صاحبنا . والدافع إليها ظلم بعض خلفاء بني أمية وأمرائهم ، وإضاعتهم لبعض الفرائض الإسلامية التي كان من المفروض أن ترعاها دولة الإسلام .

علي رضي الله عنه :

أما علي فلم يكن له الوقت الكافي لإنشاء مدرسة لها أصول واضحة ومميزات خاصة ، كالتي أنشأها ابن مسعود : فقصر المدة التي قضاها بالكوفة بالإضافة إلى اشتغاله بأمر الخلافة والحروب التي خاضها مع مخالفيه ، كل ذلك حال دون تفرغه الكامل للتربية والتعليم .

لكن مع ذلك نجد له حضورا ـ وإن كان محدودا ـ في الساحة العلمية بالكوفة ، وأنه كان يعقد مجالس العلم ، وأن الناس كانوا يتعلمون من سيرته في العبادات والمعاملات والسياسة الشرعية :

يذكر ابن سعد أن سعيد بن وهب الهمداني كان لزوما لعلي ، فكان يقال له : «القراد» للزومه إياه [٢] .

الحارث الأعور كان أيضا من الذين لازموا عليا ، وأخذوا عنه علمه : يروي ابن سعد أن علي بن أبي طالب خطب الناس فقال : من يشتري علما بدرهم؟ فاشترى الحارث الأعور صحفا بدرهم ، ثم جاء بها عليا فكتب له علما كثيرا . ثم إن عليا خطب الناس بعد فقال : « يا أهل الكوفة غلبكم نصف رجل » [٣] . وقال الشعبي :

---

(١) يذكر عن زر بن حبيش أنه غزا اثنتي عشرة غزوة : سير أعلام النبلاء ٤/ ١٦٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ١٧٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ١٦٨ .

« رأيت الحسن والحسين يسألان الحارث الأعور ، عن حديث علي » .

ويعتبر علي ﷺ معلم أهل الكوفة في علم الفرائض الذي كان يتقنه إتقانا ، فالحارث الأعور قد تعلم الفرائض من علي [١] ، وكان يقال : ليس بالكوفة أحد أعلم بفريضة من عبيدة والحارث الأعور [٢] . و قال الشعبي : « تعلمت الحساب من الحارث الأعور » [٣] ، يقصد الفرائض [٤] .

قال ابن سعد عند ترجمته لعبيد بن نضيلة الخزاعي : « ... وروى عن علي في الفريضة » [٥] .

وكانوا يتعلمون من قضائه المتعلق بتقسيم التركة : فعن ميسرة بن عزيز الكندي ، وهو من الذين رووا عن علي ، قال : « توفي مولى لي وترك ابنة ، فأتينا عليا فأعطاني النصف وأعطى البنت النصف» [٦] .

والثابت أن عليا أقرأ القرآن أيضا ، قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي : « أخذت القراءة عن علي » [٧] . وذكر الذهبي أن زر بن حبيش قرأ على ابن مسعود وعلي [٨] .

الطبقة الثانية :

أخذ الخلافة في التدريس والتربية بعد عبد الله بن مسعود تلامذته الذين كانوا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ١٦٨ .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٢٤٨ .

(٤) المصدر السابق ٦/ ٢٥٨ .

(٥) المصدر السابق ٦/ ١١٧ .

(٦) المصدر السابق ٦/ ٢٢٣ .

(٧) المصدر السابق ٦/ ١٧٢ .

(٨) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٦٧ .

ملازمين له . ولقد هيأ ابن مسعود إلى هذه الخلافة قبل رحيله عن الكوفة فقال : « ما أقرأ شيئا ولا أعلمه إلا علقمة يقرأه أو يعلمه ...» [١] . وكان يأمر علقمة « ان يقرئ بعده » [٢] .

كان الدرس يتناول القرآن والسنة والفقه فيهما ، قال إبراهيم النخعي : « كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس القرآن ويعلمونهم السنة [٣] ويصدر الناس عن رأيهم ستة ...» ، وذكرهم [٤] .

ويذكر الذهبي في ترجمة أبي إسحاق السبيعي أنه قرأ القرآن على الأسود بن يزيد وأبي عبد الرحمن السلمي [٥] . ويروي ابن سعد منهج أبي عبد الرحمن السلمي في الإقراء ، وهو أنه كان يقرئ عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي ، ويخبرهم بموضع العشر والخمس ، ويقرئ خمسا خمسا ، يعني خمس آيات خمس آيات [٦] .

وكان التعليم في كل مكان : في المسجد وخارجه [٧] . ولعل العادة الغالبة أن الشيوخ كانوا لا يأخذون على التعليم أجرا [٨] .

وكانت المجالس التي تروى فيها قصص الأمم السابقة شائعة في الكوفة ، ولقد حذر أبو عبد الرحمن السلمي بعض الغلمان بأن لا يجالسوا القصاص ، واستثنى

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٩١.

(٣) تشمل السنة أيضا ما كان عليه العمل في عهد الصحابة .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٩٣ .

(٦) طبقات ابن سعد ٦/ ١٧٢ .

(٧) كان بعضهم كعلقمة يتجنب الإقراء والتحديث في المسجد ، خشية الشهرة وذيوع الصيت ، والثناء من العامة . ينظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠ .

(٨) ينظر مثلا ترجمة أبي عبد الرحمن السلمي في طبقات ابن سعد ٦/ ١٧٣ .

منهم أبا الأحوص عوف بن مالك [١] .

وما زال التلقين في هذه الفترة ـ كما كان في حياة ابن مسعود ـ مقرونا بالتربية ، وكان الطالب ينظر إلى شيخه ويتعلم من سلوكه ، يفعل ذلك في إقامته وظعنه ، في بيته وفي المسجد ، وفي الأماكن العامة ، في السلم والحرب ، في حالة اليسر وحالة العسر ، في وقت الكرب والحزن وفي وقت الفرج ، تماما كما كان الصحابة يفعلون مع رسول الله ﷺ :

* يروي ابن سعد بسنده إلى إبراهيم النخعي قال : « كنا مع علقمة حين وضع رجله في الغرز ، فقال : بسم الله . فلما استوى قال : الحمد لله ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣] [٢] .

وفي رواية أخرى عنه قال : « خرجت مع علقمة ، فلما وضع رجله في الغرز قال : اللهم إني أريد الحج ، فإن تيسر وإلا فعمرة . ولم أره اغتسل يوم جمعة حتى دخل مكة ، ورأيته أخذ كساء التف به ، ثم جلس فيه وهو محرم ، وغطى طرف أنفه وفمه » .

وروى ابن سعد عنه أيضا أن علقمة « قصر بالنجف ، والأسود بالقادسية ، حين خرجا إلى مكة » .

وأخرج عنه أيضا أن علقمة « قدم مكة ليلا فطاف سبعا فقرأ الطوال ، ثم طاف سبعا فقرأ المئين ، ثم طاف سبعا فقرأ المثاني ، ثم طاف سبعا فقرأ ما بقي » [٣] .

تلاحظ من خلال هذه النصوص أن إبراهيم النخعي في سفره مع شيخه علقمة

---

(١) عوف بن مالك بن نضلة الجشمي ، أبو الأحوص ، كوفي ، ثقة . تهذيب التهذيب ٣/ ٣٣٧ ، مؤسسة الرسالة .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٧ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٨ .

يتعلم منه مجموعة من الأحكام والفضائل والآداب الإسلامية ، يتعلمها مطبقة من شيخه .

وتجد عامرا الشعبي يقول : « أقمت مع علقمة بمرو سنتين يصلي ركعتين »[١] . أي أنه كان يقصر الصلاة .

وروى عبد الرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي ليلى قال : سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول : رمقت عبد الله بن مسعود في الصلاة ، فرأيته ينهض ولا يجلس ، قال : ينهض على صدور قدميه في الركعة الأولى والثانية[٢] .

هذا المنهج في التعليم له تأثير في تزكية النفس وتحسين السلوك الشخصي للطالب . أضف إلى ذلك أن الشيخ يعظم في عين تلميذه ويبقى طول حياته يكن له الاحترام والتقدير ، حتى وإن تجاوزه في العلم والتحصيل .

وتزداد علاقة الطالب بالشيخ متانة عندما يعمد الشيخ إلى الاستفادة من الطالب أو يعلمه أنه أصبح مثله : يروي إبراهيم عن علقمة أن عبد الله قال له : أمسك علي سورة البقرة . فلما قرأها قال : هل تركت منها شيئا؟ فقلت : حرفا واحدا . قال : كذا وكذا؟ فقلت : نعم[٣] .

وقد سبق قول عبد الله بن مسعود : ما أقرأ شيئا ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه[٤] . بالمقابل ترى من الطالب الاحترام للشيخ ، والخدمة له ، والاهتمام بشأنه في سفره وحضره . قال أبو قيس الأودي : « رأيت إبراهيم يأخذ بركاب

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٩٢ .

(٢) ينظر المصنف ٢/ ١٧٨ ، ١٧٩ ، رقم ٢٩٦٦ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٨٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨ .

علقمة وهو غلام أعور »[١] .

وقال عمرو بن ميمون : «كنت خبازا لعلقمة عشر سنين في الحضر»[٢] .

وهذا بخلاف العلاقة المقتصرة على ساعة الدرس ، وتنتهي بانتهائه فإن مثل هذا التعليم في منظور الإسلام يعتبر قاصرا ، فالإنسان بمثل هذه العلاقة قد يكتسب علما ، ولكن قد لا يكتسب عادة العمل بهذا العلم . وقد لا يكتسب السلوك الحسن الذي يتحلى به الشيخ . ولعل هذا من الأسباب التي كان من أجلها العلماء ينبهون على أن العلم يؤخذ من أفواه الرجال ، ويحذرون من الأخذ عن الصحفيين . أما قصر هذا التنبيه على سبب واحد ـ وهو أن الأخذ عن الشيوخ يعصم من اللحن والخطأ والتصحيف ـ فإنه تعليل ناقص . والله أعلم .

الطبقتان الثالثة والرابعة :

انتشرت حلق الدرس في المساجد واتسعت : فكانت لأبي وائل شقيق بن سلمة حلقة . وفي طبقات ابن سعد التنصيص على أن الأعمش كان يحضر حلقته[٣] .

وعند ابن سعد أيضا أن إبراهيم النخعي هو الذي نصح الأعمش بملازمة أبي وائل[٤] .

وربما اجتمع الناس في منزل أبي وائل وذكرهم إبراهيم بن يزيد التيمي[٥] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٩١ ، و سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠ . وأبو قيس الأودي هو عبد الرحمن بن ثروان الكوفي . ينظر تهذيب التهذيب ٢/ ٤٩٥ ، مؤسسة الرسالة .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٩١ . وعمرو بن ميمون ترجمته في ٦/ ١١٧ من طبقات ابن سعد ، قلت : وهذا يذكرنا بعلاقة ابن مسعود مع رسول الله ﷺ ، وأنه كان صاحب نعله ووضوئه ، وينظر صحيح البخاري كتاب الوضوء ، الباب ١٦ قبل الحديث رقم ١٥١ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧١ .

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٩٩ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٦٣ .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ٩٩ ـ ١٠٠ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٦٥ .

وكانت للشعبي حلقة عظيمة [١] ، وكان لإبراهيم النخعي حلقة في المسجد ، وكان الأعمش يجلس إليه ، وكان يجلس إليه حتى العريف والشرطي ، لكن عدد حلقته من الناس كان قليلا : أربعة أفراد وخمسة [٢] .

ولعل السبب في ذلك أن إبراهيم النخعي كان يكره الكتابة وينهى طلابه أن يكتبوا ، وكان يكره التوسع في الإفتاء أيضا [٣] ، وهو مبرر قوي في عزوف الطلاب عنه ، وفي عدم اتساع حلقته [٤] .

وكان لحماد حلقة أيضا يدرس فيها طلاب العلم ، ويجيب فيها عن أسئلة العامة [٥] .

وقد يكون أكثر من حلقة في مسجد واحد : قال مرة الشعبي ، وقد دخل المسجد ، لبعض رفاقه : « انظر هل ترى أحدا من أصحابنا نجلس إليه؟ هل ترى أبا حصين؟ » [٦] .

وفي تقديري أن المسجد المسمى بمسجد الكوفة «أو المسجد الأعظم» هو الذي كان يحظى بهذه الميزة ، فالنص هو قصة للشعبي مذكور فيه «المسجد» هكذا بالألف واللام ، والظاهر أنها للعهد : أي : المسجد المعهود المعروف لدى الناس ، الموجود بالكوفة ، ويروي ابن سعد في ترجمة إبراهيم النخعي عن الأعمش قال : « قال لي

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٤ ، وينظر سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٣ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٠ ـ ٢٧١ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٢ .

(٤) في سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٦ قول جرير بن عبد الحميد : « كان منصور إذا رأى معي رقعة يقول : لا تكتب عني ، فأتركه وآتي مغيرة » ، أي مغيرة بن مقسم .

(٥) أخبار أبي حنيفة للصيمري ، (ص٦) .

(٦) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٢١ وسير أعلام النبلاء ٥/ ٤١٥ . واسم أبي حصين : عثمان بن عاصم بن حصين .

خيثمة «أي : ابن عبد الرحمن» : تذهب أنت وإبراهيم فتجلسون في المسجد الأعظم فيجلس إليكم العريف والشرطي . فذكرته لإبراهيم فقال : نجلس في المسجد فيجلس إلينا العريف والشرطي أحب من أن نعتزل فيرمينا الناس برأي يهوي »[١] .

وفي كتاب الثقات تقرأ قول عبد الرحمن بن أبي ليلى مرويا من طريق « الثوري عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : أدركنا في المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ عشرين ومائة من أصحاب النبي ﷺ ، ما سئل أحد منهم عن حديث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث ...»[٢] .

المواد التي تدرس :

كان الدرس في هذه الحلقات يتناول القرآن والحديث والفرائض والحلال والحرام والوعظ ، وكل ما من شأنه أن يهذب السلوك ويرتقي بالطالب إلى مرتبة الإحسان ، وإليك بعض النصوص التي تبين ذلك :

قال ابن سعد : « وكان الأعمش صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث ، وقرأ عليه طلحة بن مصرف القرآن ، وكان يقرئ الناس ، ثم ترك ذاك في آخر عمره ، وكان يقرأ القرآن في كل شعبان على الناس ، في كل يوم شيئا معلوما حين كبر وضعف ، ويحضرون مصاحفهم فيعارضونها ويصلحونها على قراءته ، وكان أبو

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٣ . وقد تجد اسم « المسجد الجامع » كما أخرج الصيمري عن أبي يوسف قوله : « كان أكثر فقهاء الكوفة «أي في عهد أبي حنيفة» يصلون أكثر الصلوات في مسجد الجامع «كذا» ، وكانوا يصلون صلاة السحر في مسجد الجامع ...» . أخبار أبي حنيفة ص ٤٢ . ويذكر ابن سعد أن والد ليث بن أبي سليم كان « من العباد المجتهدين في المسجد الجامع بالكوفة ...» . طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٩ . وينظر ما يتعلق بمساجد الكوفة من حيث العدد والتوزيع والأهمية والوظيفة في كتاب : الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ص٣١٢ ـ ٣١٧ ، لهشام جعيط ، دار الطليعة بيروت . الطبعة المعربة .

(٢) الثقات لا بن حبان ٩/ ٢١٥ ، ترجمة نصر بن مزاحم ، دار الفكر ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م .

حيان التيمي يحضر مصحفا له ، كان أصح تلك المصاحف فيصلحون على ما فيه أيضا ، وكان الأعمش يقرأ قراءة عبد الله بن مسعود ...» [١] .

وقال في طلحة بن مصرف : « وكان قارئ أهل الكوفة ، يقرؤون عليه القرآن ، فلما رأى كثرتهم عليه كأنه كره ذلك لنفسه ، فمشى إلى الأعمش فقرأ عليه ، فمال الناس إلى الأعمش وتركوا طلحة » [٢] .

ـ وروى ابن سعد عن مغيرة بن مقسم قال : « لما مات إبراهيم رأينا أن الذي يخلفه الأعمش ، فأتيناه فسألناه عن الحلال والحرام ، فإذا لا شيء ، فسألناه عن الفرائض فإذا هي عنده . قال : فأتينا حمادا ، فسألناه عن الفرائض فإذا لا شيء ، فسألناه عن الحلال والحرام فإذا هو صاحبه . قال : فأخذنا الفرائض عن الأعمش ، وأخذنا الحلال والحرام عن حماد عن إبراهيم » [٣] .

ـ سأل شعبة حماد بن أبي سليمان عن عين الأضحية يكون فيها البياض فلم يكرهها . وسأله عن الرجل يحلف عن الشيء كاذبا وهو يرى أنه صادق فقال له : لا يكفر . وسأله عن التربع في الصلاة فقال : لا بأس به . وسأله عن الرجل يسرق من بيت المال فقال له : يقطع [٤] .

وهذا أبو إسحاق السبيعي يربي طلابه على كل ما يقوي فيهم الإيمان ، ويزكي نفوسهم ، ويهذب سلوكهم ، ويعطيهم النموذج من نفسه فيقول : يا معشر الشباب اغتنموا ـ يعني قوتكم وشبابكم ـ قلما مرت بي ليلة إلا وأنا أقرأ فيها ألف آية ، وإني لأقرأ البقرة في ركعة ، وإني لأصوم الأشهر الحرم ، وثلاثة أيام من كل شهر ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٢ . وابو حيان التيمي هو يحيى بن سعيد بن حيان الكوفي العابد ، تهذيب التهذيب ٤/ ٣٥٧ . مؤسسة الرسالة .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٨ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٣٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٣ .

والاثنين والخميس [١] .

التوسع في الرأي :

توسع الناس في الإفتاء بالرأي وتجرؤوا عليه حتى قال أبو حصين : « إن أحدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر » [٢] .

ولقد ضاق ذرعا بهذا الشيوع بعض الفقهاء المحدثين كالشعبي ، الذي صار يكره الجلوس في المسجد بسبب جلسة حماد؛ لأنه يقال فيها بالرأي [٣] .

ومن الذين كانوا يستفتون سعيد بن جبير ، فكان يقول : « أتستفتوني وفيكم إبراهيم » [٤] ، وكذلك أبو وائل كان يقول للمستفتي : اذهب فسل أبا رزين ، ثم ائتني فأخبرني ما رد عليك ـ وكان أبو رزين معه في الدار ـ وربما قال للمستفتي : ائت إبراهيم فسله ، ثم ائتني فأخبرني ما قال لك [٥] .

ومن الذين اشتهروا بالتوسع في الرأي حماد بن أبي سليمان ، وأقر على ذلك من طرف إبراهيم نفسه ، فإنه كان أفقه أصحابه [٦] .

إلا أنه يحق لنا أن نشير إلى أن التوسع في الرأي لم يكن الباعث عليه حب الشهرة والتماس المديح من العامة ، والحظوة عند أهل النبل والسلطان ، فلم أقف على ما يدل على ذلك ، بل ذكر نقيض هذا ، فهذا حماد يقول ، وهو يكتب أطراف الحديث :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٩٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤١٦ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥١ .

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٠ .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٠ . وأبو رزين : مسعود بن مالك ، كوفي ثقة . تهذيب التهذيب ٤/ ٦٣ ، مؤسسة الرسالة .

(٦) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٤ .

« إنا لا نريد بذلك دنيا » [١] .

وتجد تلميذه أبا حنيفة الذي توسع في الرأي أيضا يظاهر العداء لبني أمية ، وبعدهم بني العباس .

إنما الراجح في تقديري أن السبب في هذا التوسع هو اتساع رقعة المجتمع الإسلامي ، وظهور ألوان جديدة من الحياة ، وتلون مظاهر التعامل .

وتبعا للتوسع في الإفتاء بالرأي ظهرت المناظرة بالمعنى الاصطلاحي ، ووصف الذهبي حمادا بأنه كان « أنبل أصحاب إبراهيم وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة والرأي » [٢] . وكان أبو حنيفة « إذا ناظره رجل في شيء من الفقه همته نفسه » [٣] .

وبموازاة مع ذلك اتسعت دائرة الابتداع في العقيدة ، فإذا كان المعروف أن العراق هو معقل الفكر الشيعي الذي انبثق عنه الفكر الخارجي ، وأن الظهور المبكر لهذين الفكرين ظاهرة طبيعية ـ لأنه ارتبط بمقام علي ﷺ بالعراق والحروب التي خاضها مع أهل الشام ، ومقتل الحسين ، والتنكيل بآل البيت ـ فإن ظهور عقيدة الإرجاء مما يستحق الإشارة إليه ، وأنه لم يشع بالكوفة إلا في عهد إبراهيم النخعي وطبقته .

وكان إبراهيم من الذين شددوا القول في المرجئة ، فنبه الناس إلى خطرهم ، ومما كان يقوله : « إياكم وأهل هذا الرأي المحدث » ، يعني المرجئة ، وكان يقول لطلبته : « لا تجالسوهم » . وناظرهم ، ثم قال مغضبا بعد أن سمع كلامهم : « إن كان هذا كلامكم فلا تدخلوا علي » . وقال : « الإرجاء بدعة » . وقال : « لأنا على هذه الأمة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣١ .

(٣) أخبار أبي حنيفة للصيمري ص ٩ .

من المرجئة أخوف عليهم من عدتهم من الأزارقة »[١] .

والمعلوم أن من نتائج فكر الإرجاء إنتاج جيل اتكالي انعزالي ، يؤثر العافية والسلامة على اقتحام طريق الإصلاح والتغيير في الأمة ، عندما تفشو فيها المعاصي وتنتشر الرذيلة .

وكان يعلم طلابه المنهج الذي يجب اتباعه مع المرجئة في المناظرة . قيل لإبراهيم : إنهم يقولون لنا مؤمنون أنتم؟ قال : إذا سألوكم فقولوا : ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة:١٣٦] ، إلى آخر الآية .

والظاهر أن المرجئة في هذه الفترة أصبح لهم تأثير كبير في أوساط الطلاب ، وإلا لما احتاج إبراهيم إلى مناظرتهم وتحذير الطلاب من الجلوس إليهم ومجادلتهم . بل إننا نجد حماد بن أبي سليمان ، وهو من أفقه أصحاب إبراهيم وأبصرهم بالمناظرة ، يتهم بالإرجاء ، مما يدل على نوع من التأثير عليه إثر لقائه بهم[٢] .

الإجازة في الإفتاء والتدريس :

كانت إجازة الشيوخ ـ كما في عهد ابن مسعود وعهد أصحابه ـ لبعض طلابهم في التدريس وتصدر المجالس عادة جارية : فنجد إبراهيم يوجه الناس إلى من يسألونه بعده ، وهو حماد[٣] . وقال مغيرة بن مقسم : « إتينا إبراهيم نعوده حين

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٢) ينظر الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ، في ترجمة حماد ٢/ ٢٣٥ . ويوضح الذهبي أن حمادا تحول مرجئا إرجاء الفقهاء ، وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة من الإيمان ويقولون : الإيمان إقرار باللسان ويقين بالقلب ، قال : « والنزاع على هذا لفظي إن شاء الله ، وإنما غلو الإرجاء من قال : لا يضر مع التوحيد ترك الفرائض . نسأل الله العافية » . سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٣ .

(٣) ينظر الكامل لابن عدي في ترجمة حماد ٢/ ٢٣٥ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٢ .

اختفى فقال : عليكم بحماد ، فإنه قد سألني عن جميع ما سألني عنه الناس »[١] .

وقال مغيرة أيضا : « قلت لإبراهيم : إن حمادًا جلس يفتي . قال : وما يمنعه ، وقد سألني عما لم تسألني عن عشره »[٢] .

وهذا يفيد أن الفتوى كان يراعى فيها ما كان عليه العلماء ، وما أفتوا به ، وهو ما يسمى بعمل أهل البلد ، وهي ميزة في الفقه كانت سائدة في هذا العهد بالكوفة وغيرها ، وأنها ـ بعد القرآن ـ من مصادر الفتوى ، وهي الميزة التي ظهرت بصورة ممنهجة أكثر على يد الإمام مالك ~ بالمدينة[٣] .

وسادت في هذه الفترة مذاكرة الفقه والاجتماع على المسائل ، قال ابن شبرمة : « كنت إذا اجتمعنا أنا والحارث «العكلي» على مسألة لم نبال من خالفنا فيها » . وكان ابن شبرمة والحارث بن يزيد العكلي والمغيرة والقعقاع بن يزيد وغيرهم يتذاكرون الفقه ليلا وقد يستمرون على هذه الحال حتى يسمعوا نداء الفجر[٤] .

منهج التخصص في الأشخاص والمواد :

المنهج التخصصي اتضحت معالمه أكثر في هذا العهد ، أقصد التخصص في المواد ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٤ .

(٣) للتوسع في هذه النقطة ينظر ما كتبه ولي الله الدهلوي في حجة الله البالغة ١/ ٣٠٦ و ١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، تح السيد سابق ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد ، والإنصاف في بيان أسباب الاختلاف له ص٣٦ ـ ٣٧ ، مراجعة وتعليق عبد الفتاح أبو غدة ، دار النفائس ط٣ ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦ .

(٤) المعرفة والتاريخ ٢/ ٦١٤ . وفي طبقات ابن سعد ٦/ ٣٣٤ : كان الحارث العكلي وابن شبرمة يتذكران القضاء بعد العشاء الآخرة ، فكان يمر بهم أبو المغيرة فيقول : بهذه الساعة ، أما يكفيكم ما يكون منكم في النهار حتى تذكروه بهذه الساعة أيضا ؟ وينظر كذلك طبقات الفقهاء للشيرازي ، ترجمة الحارث العكلي .

والتخصص في الأشخاص ، والتخصص في علم معين على يد شخص معين : فقيس بن الربيع يوصف أنه «أروى الناس» عن أبي حصين ، عنده عنه أربعمائة حديث ، وتجد أحمد بن حنبل يقول في الحكم بن عتيبة : «هو أثبت الناس في إبراهيم» ، وسفيان بن عيينة يقول في حماد : « وكان حماد أبصر بإبراهيم من الحكم » [١] ، وأحمد ابن عبد الله العجلي يقول فيه : « كان أفقه أصحاب إبراهيم » [٢] .

وقد مر معنا في نص أن الأعمش أخذ عن إبراهيم ، لكنه برز فقط في الفرائض ، وحماد أتقن الحلال والحرام ولم يتقن الفرائض ، قال مغيرة : « فأخذنا الفرائض عن الأعمش وأخذنا الحلال والحرام عن حماد عن إبراهيم » [٣] . وكان سفيان الثوري أعلم الناس بحديث الأعمش [٤] .

الحركة الحديثية بالكوفة :

كانت بضاعة الحديث رائجة منذ عهد عبد الله بن مسعود ، فأهل الكوفة هم الحافظون لحديثه والمعتنون به ، قال الأعمش : « كنت إذا اجتمعت أنا وأبو إسحاق (السبيعي) جئنا بحديث عبد الله غضا » [٥]. ويذكر أن أبا وائل هو أعلم أهل الكوفة بحديث ابن مسعود [٦] .

لكن الشيء المقرر عند العلماء أن أهل العراق عموما لا يرقون إلى مستوى أهل الحجاز في الرواية والضبط والإتقان ، حتى كان الزهري إذا ذكر أهل العراق ضعف

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٢ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٣٤ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٣٢ .

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٣ .

(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٤٣ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٦٣ .

علمهم [١] ، أي حديثهم . وترى علماء تاريخ التشريع يميزون بين أهل الرأي «أي أهل العراق» ، وأهل الحديث «أي أهل الحجاز» ، ويعنون بذلك أن أهل العراق اشتهروا بالاعتماد في الفقه على الرأي ، توسعوا فيه وأقلوا من الرواية ، وأن أهل الحديث اعتمدوا في فقههم على الحديث ، ولا يلتجئون إلى الرأي إلا إذا أعياهم البحث عن النص .

وإقلال أهل الكوفة عموما ـ وإلا فقد كان فيهم من توسع في الرواية وكان من كبار النقاد ـ راجع إلى جملة أمور ، أهمها في تقديري :

١ ـ أنهم وجّهوا عنايتهم إلى القرآن أكثر من غيره ، ويذكر ولي الله الدهلوي في حجة الله البالغة أن عمر ﷺ بعث رهطا من الأنصار إلى الكوفة فقال لهم : « إنكم تأتون الكوفة ، فتأتون قوما لهم أزيز بالقرآن ، فيأتونكم فيقولون : قدم أصحاب محمد ، قدم أصحاب محمد ، فيأتونكم فيسألونكم عن الحديث ، فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ » [٢] . ونرى نتائج هذا الاهتمام فيما بعد ، حيث نلاحظ أن ثلاثة قراء من سبعة كوفيون ، وواحدا من سبعة بصري ، أي : إن أربعة قراء من سبعة عراقيون . وهذا ليس غريبا : فابن مسعود دائما كان يؤكد على ضلوعه في القرآن وعلومه ، حتى قال : « لو أن أحدا هو أعلم بالقرآن مني تبلغه المطي لأتيته » [٣] ، وأبى في البداية أن يسمح بتحريق مصحفه وإتلافه ، عندما أراد ذلك عثمان من الصحابة ، وجمعهم على مصحف واحد .

وينقل أهل التراجم أن صاحبنا ابن أبي ليلى كان من القراء ، وأن حمزة الزيات

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٢ .

(٢) حجة الله البالغة ١/ ٣١٩ ، والإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ص٥٧ ، وينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٧ .

(٣) ينظر مثلا إحكام ابن حزم ٢/ ٢٤٩ دار الجيل ط٢ . ١٤٠٧ـ١٩٨٧.

القارئ الكوفي قد قرأ عليه [١] .

٢ ـ كثرة الفتن التي عرفتها الكوفة ، وتبع ذلك انتشار الوضع حتى سمي العراق « دار الضرب » ، أي المكان الذي تخترع فيه الأخبار وتوضع ، ولذلك ترى العلماء العراقيين يتحرجون من قبول الأحاديث إلا إذا كانت معروفة عندهم ببلدهم ، ويوثرون التفريعات الكثيرة من عمومات القرآن ، كما يلاحظ ذلك من طالع كتب الأحناف الفقهية . فعمومات القرآن عندهم قطعية الدلالة ، والعادة عندهم تغليب عام القرآن وتقديمه على ما يعارضه من خبر الواحد .

٣ ـ قلّة الصحابة بها الذين حفظوا أخبار رسول الله ﷺ ، وحتى الذين نزلوا بها ، كثير منهم لم تكن إقامتهم طويلة بالقدر الذي يسمح بالاستفادة الواسعة منهم . والمعروف أن عمر كان يمنع الصحابة الكبار من مغادرة المدينة . وعندما أرسل ابن مسعود إلى أهل الكوفة امتن عليهم بقوله : « آثرتكم به على نفسي » .

٤ ـ الاشتغال بالفقه ، والاعتناء بآثار الصحابة ، والتورع عن التوسع في الرواية ، ورد الأحاديث غير الرائجة بالكوفة : قيل لإبراهيم : يا أبا عمران أما بلغك حديث عن النبي ﷺ تحدثنا؟ قال : « بلى ولكن أقول : قال عمر ، وقال عبد الله ، وقال علقمة ، وقال الأسود . أجد ذلك أهون عليَّ » [٢] . وقال الأعمش : « ما رأيت أحدا أرد لحديث لم يسمعه : من إبراهيم » [٣] .

وقال الشعبي وقد سئل عن حديث ، وقيل إنه يرفع إلى النبي ﷺ ؟ قال : لا ، على من دون النبي ﷺ أحب إلينا ، فإن كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون

---

(١) ينظر أول المبحث السابع من الفصل الثاني من هذا الباب .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٨ .

النبي ﷺ [١] .

بعد هذه النظرة الموجزة عن مستوى الرواية في الحديث بالكوفة أنتقل إلى الإشارة إلى بعض المميزات :

١ـ كانت مذاكرة الحديث بين الشيوخ وبين الطلبة هي الرائجة في مختلف الطبقات ، حتى عهد ابن أبي ليلى : قال علقمة : « تذاكروا العلم ، فإن حياته ذكره » [٢] . وروى ابن سعد عن يزيد بن أبي زياد قال : « قال عبد الرحمن بن أبي ليلى : حياة الحديث مذاكرته » .

قال : « وقال عبد الله بن شداد : يرحمك الله ، كم من حديث قد أحييته في صدري ، قد كان مات » [٣] . وروى عنه أيضا أنه قال : « سمعت عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول لعبد الله بن عكيم : تعال حتى نتذاكر الحديث ، فإن حياته ذكره » [٤] .

وكان الشعبي وإبراهيم وأبو الضحى يجتمعون في المسجد يتذاكرون الحديث فإذا جاءهم شيء ليس فيه عندهم رواية : رموا إبراهيم بأبصارهم [٥] .

ومر بنا أن الأعمش وأبا إسحاق السبيعي كانا يتذاكران حديث ابن مسعود [٦] .

وقال يحيى بن آدم : حدثنا الحسن بن ثابت : سمعت الأعمش يعجب من حفظ أبي إسحق لرجاله الذين يروي عنهم . ثم قال الحسن : وحدثنا يونس بن أبي إسحاق

---

(١) الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف للدهلوي ص ٣٥ ـ ص ٥٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٩٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ١١٢ .

(٤) السابق ٦/ ١١٢ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٢ . قلت : كان إبراهيم كما يذكر الأعمش صيرفي الحديث ، يعرف صحيحه من ضعيفه . سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢١ .

(٦) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٣ .

قال : كان الأعمش إذا جاء إلى أبي رحمته : من طول جلوس الأعمش معه [١] .

٢ ـ كان **التحديث بالمعنى سائغا عند إبراهيم** ، وكان يكره كتابة الحديث ، ويعلل ذلك بقوله : « إنه قل ما كتب إنسان كتابا إلا اتكل عليه ...» .

إلا أنه كان لا يرى بأسا بكتابة أطراف الحديث لسهولة الاستذكار [٢] . وكان سعيد بن جبير يكره الكتابة أيضا [٣] .

وتبعهم في الكراهة منصور بن المعتمر [٤] . وقبلهم عبيدة السلماني ، كان يقول : « لا تخلدن علي كتابا » [٥] .

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٩٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٦ .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ٩٤ .

المبحث الثالث
الحركة القضائية بالكوفة

عرفت الكوفة منذ أن مصرها عمر بن الخطاب وحتى عهد ابن أبي ليلى طائفة من القضاة ، تعاقبوا على قضاء الكوفة أهمهم :

- عروة بن أبي الجعد البارقي [١] .
- سلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلي (ت٢٥هـ) [٢] .
- عبد الله بن مسعود ، الصحابي الجليل .
- شريح بن الحارث بن قيس الكندي ، المشهور بشريح القاضي [٣] .
- عبيدة بن عمرو السلماني ، الفقيه ، المرادي ، الكوفي (ت٧٢هـ) [٤] .
- محمد بن زيد بن خليدة [٥] .
- سعيد بن نمران الناعطي الهمداني [٦] .

---

(١) وهو صحابي . ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤ ، والاستيعاب ٣/ ١٠٦٥ ، وأخبار القضاة ٢/ ١٨٦ ، وطبقات خليفة بن خياط ص١١٢ .

(٢) ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ١٣١ ، والمعارف ص٤٣٣ ، والتاريخ الكبير ٢/ ٢/ ١٣٦ ، رقم ٢٢٣٧ ، وتاريخ الثقات ص١٩٨ ، وكتاب الثقات ٤/ ٣٣٢ ، والاستيعاب ٢/ ٦٣٢ ، والإصابة ٣/ ١٣٩ ، تح : البجاوي ، وأخبار القضاة ٢/ ١٨٦ ، وتهذيب التهذيب ٤/ ١٣٦ ، دار صادر .

(٣) تنظر أخباره وأقضيته وفتاواه مستوفاة في أخبار القضاة ٢/ ١٨٩ وما بعدها و٢/ ٣٩٥ وما بعدها .

(٤) ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٩٣ ، وفيه : « عبيدة بن قيس» ، وأخبار القضاة ٢/ ٣٩٩ ، والمعارف ص٤٢٥ ، وتاريخ بغداد ١١/ ١١٨ ، والتاريخ الكبير ٢/ ٣/ ٨٢ رقم ١٧٧٧ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٠ ، وتهذيب التهذيب ٧/ ٨٤ ، دار صادر ، والإصابة ٧/ ٢٦١ ، رقم ٦٤٠١ ، تح الزيني .

(٥) التاريخ الكبير ١/ ١/ ٨٥ رقم ٢٣٢ ، والجرح والتعديل ٧/ ٢٥٦ رقم ١٤٠٣ ، وكتاب الثقات ٥/ ٣٧٠ ، وتاريخ خليفة بن خياط ص٢٠٠ .

(٦) التاريخ الكبير ١/ ٢/ ٥١٧ رقم ١٧٢٦ ، والجرح والتعديل ٤/ ٦٨ ، وطبقات ابن سعد ٦/ ٨٤ ، وميزان الاعتدال ٢/ ١٦١ ، رقم ٣٢٨٦ ، ولسان الميزان ٣/ ٦٤ .

- مسروق بن الأجدع الهمداني (ت٦٣هـ) [١] .
- عبد الله بن عتبة بن مسعود [٢] .
- أبو بردة بن أبي موسى الأشعري ، واسمه عامر [٣] .
- أبو بكر بن أبي موسى الأشعري ، واسمه : كنيته [٤] .
- عامر بن شراحيل الشعبي التابعي الجليل المشهور .
- القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلي [٥] ، (ت ١٢٠هـ وقيل ١١٦هـ) .
- عبد الملك بن عمير اللخمي ، ويكنى أبا عمر [٦] .
- الحسين بن الحسن الكندي [٧] .
- سعيد بن عمرو بن أشوع الهمذاني الكوفي [٨] .

---

(١) ينظر تاريخ خليفة بن خياط ص٢٢٨ ، وطبقات ابن سعد ٦/ ٨٢ ، وأخبار القضاة ٢/ ٢٤٧ ، ٢٥١، ٣٩٨ .

(٢) اختلف في صحبته . وينظر طبقات ابن سعد ٦/ ١٢٠ ، وأخبار القضاة ٢/ ٤٠٣ ، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣١١ ، دار صادر .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٦٨ ، وأخبار القضاة ٢/ ٤٠٨ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٤ .

(٤) المعارف ص٢٦٦ ، وذكره ضمن « الحول » (أي أنه كان أحول) ص ٥٨٤ ، وضمن «المسمون بكناهم » ، ص ٥٩٩ . وينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٢٦٩ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٦ ، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٠ ، دار صادر ، وطبقات خليفة ص١٥٨ .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٣ ، وأخبار القضاة ٣/ ٦ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ١٩٦ ، وتهذيب التهذيب ٨/ ٣٢١ ، دار صادر .

(٦) طبقات ابن سعد ٦/ ٣١٥ ، وفيه أنه قضى قبل الشعبي ، وأخبار القضاة ٣/ ٤ .

(٧) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٥٢ ، وأخبار القضاة ٣/ ٩ .

(٨) تاريخ خليفة ص٣٦١ ، وطبقات ابن سعد ٦/ ٣٢٧ ، وأخبار القضاة ٣/ ١٠ و٢٣ ، وتهذيب التهذيب ٤/ ٦٧ ، دار صادر .

- محارب بن دثار ... الكوفي ، الفقيه (ت١٠٨هـ) [١] .
- الحكم بن عتيبة بن النهاس بن حنصب بن يسار العجلي ، قاضي الكوفة ، وليس هو الحكم بن عتيبة الكندي مولاهم ، الفقيه المحدث ، الإمام المشهور [٢] .
- عيسى بن المسيب البجلي [٣] .
- عبد الله بن شبرمة (ت١٤٤هـ) .
- محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى .

التوجه الفكري والعقدي لقضاة الكوفة :

نجد من بين القضاة الذين استُقضوا على عهد الأمويين بالكوفة : من كان فيه تشيع ، كسعيد بن عمرو بن أشوع ، فقد روى وكيع عنه أنه قال : « كل نساء النبي عليه السلام أحب إلي من عائشة » ، فقال له الشعبي : « أما أنت فقد خالفت النبي ﷺ كانت أحب نسائه إليه » .

وعبارة ابن أشوع تدل على أن معركة الجمل قد فعلت فيه فعلها حتى قال مقالته هذه في حق السيدة عائشة < ؛ لأنها كانت ضد علي ﷺ في هذه الوقعة . ولذلك قال الجوزجاني فيه : « غال زائغ » ، يعني في التشيع .

لكن هذا القول من الجوزجاني لعله أيضا فيه غلو ، فلقد كان شديد المقالة في الشيعة [٤] ، ولقد قال فيه ابن معين : « مشهور » ، وقال النسائي : « ليس به بأس » ، وذكره ابن حبان في الثقات ، ووثقه العجلي ، وقال البخاري في الأوسط : « رأيت

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٧ ، وأخبار القضاة ٣/ ٢٢ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢١٧ .

(٢) تهذيب التهذيب ٢/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣ ، دار صادر ، وتقريب التهذيب ١/ ١٩٢ ، وأخبار القضاة ٣/ ٢٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٦ ، وأخبار القضاة ٣/ ٢٢ .

(٤) قال عبد العزيز بن الصديق : « وهذا معروف عنه ، مشهور به ، حتى نصوا على عدم الالتفات إلى طعنه في الرجال الكوفيين ، أو من كان على مذهبهم في التشيع ...» . ينظر بيان نكث الناكث المتعدي بتضعيف الحارث لعبد العزيز بن الصديق ص ٤٥ .

إسحاق بن راهويه يحتج بحديثه » ، وقال الحاكم : « هو شيخ من ثقات الكوفيين ، يجمع حديثه » . ولقد حدث عنه سفيان الثوري وزكريا بن أبي زائدة وليث بن أبي سليم وغيرهم ، وحدث عنه أبو إسحق السبيعي وعبد الملك بن عمير وهما أكبر منه [١] .

ولقد تولى الشعبي القضاء في خلافة عمر بن عبد العزيز ﷺ [٢] ، وقبل ذلك كان فيمن خرج من القراء على الحجاج أمير الأمويين على العراق ، وشهد دير الجماجم في ثورة ابن الأشعث ، وكان فيمن أفلت فاختفى زمانا ، ثم ظهر ، وقدم على الحجاج ، واعتذر إليه ، فقبل عذره ، ومما قاله له : «خبطتنا فتنة فما كنا فيها بأبرار أتقياء ولا فجار أقوياء ...» [٣] .

والظاهر أن الشعبي لم يكن يرفض نظام الأمويين ابتداء ، وإنما كان مرد رفضه تصرف بعض الخلفاء الأمويين أو أمرائهم ، كالحجاج ، والدليل على ذلك أنه قبل أن يتولى القضاء بعد ذلك لعمر بن عبد العزيز ، وكان قبل مؤدبا لولد عبد الملك [٤] .

ومن قضاة الكوفة من كان رأسا في الإرجاء ، كمحارب بن دثار السدوسي ، قال فيه ابن سعد : «له أحاديث ولا يحتجون به ، وكان من المرجئة الأولى الذين كانوا يرجون عليا وعثمان ، ولا يشهدون (عليهما) بإيمان ولا كفر » [٥] . وله شعر في هذا المعنى أورده وكيع في أخبار القضاة ، ومما قال :

---

(١) ينظر تهذيب التهذيب ٤/ ٦٧ ، دار صادر .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٢ ، وتهذيب التهذيب ٥/ ٦٧ ، دار صادر .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٤٩ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٣٠٤ و ٣١٤ ، ووفيات الأعيان ٣/ ١٤ ، والمعرفة والتاريخ ٢/ ٥٩٨ .

(٤) أخبار القضاة ٢/ ٤٢١ . وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من أخبار القضاة كان يرويها وكيع من طريق الشعبي .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٧ ، قلت : وكان لا يقبل شهادة من لا يتولى أبا بكر وعمر ، وكان يقول : بغض أبي بكر وعمر نفاق . أخبار القضاة ٣/ ٢٨ .

ولـــيس عـــلي في الإرجـــاء بـــأس ولا نقـــص ولـست أخـاف شيـــا
إذا أيقنـــــت أن الله حـــــق وأن محمـــدا جـانـــا نبيـــــا
وأن الرســـل قـــد بعثـــوا بحـــق وأن الله كـــان لـــهم وليـــا

وبعد أن مدح الشيخين وذكر أن أمورا حدثت رأى أنه في غنى عن تفصيلها والتعليق عليها ، قال :

وسـار النـاس بعـدهم [١] صـفوف يطـاعن بعـضـهم بعـضا مليـــا
فـــإن تابعـــت هـــذا قـــال هـــذا أسـأت وكنـت كـذابا مـسيـا
فـإن خفـت الإلـه وصـنت ديـني دعيـت بهـيمـــة يدعـى نـضيا
لقـيلي : لـست أدري مـا فـلان وأيـن يـصير إذا حـضـروا جثيـا
إلى الفـــردوس يخلـــد أم تـــراه إذا اسـتعر الجحـيم لهـا صليـــا [٢]

وأُوضّح هنا بالمناسبة أن انحراف بعض الفضلاء عن سبيل الجماعة ، في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الأمة ، قد يلتمس له بعض المعاذير ، أهمها في نظري قربهم من الأحداث ، أو مشاركتهم فيها ، وهذا ليس كمن جاء بعد هذه الأحداث بمدة ، بعد أن استتب الأمر واتضحت الحقائق .

وقد يعزى ذلك أيضا إلى أنه قد يغيب على بعضهم بعض النصوص الواردة في تزكية بعض الصحابة بأعيانهم ، كعثمان بن عفان ﷺ .

ولذلك نجد بعض علماء السنة في تلك الفترة يثنون على بعض هؤلاء ، كما أثنى سفيان الثوري على محارب بن دثار بقوله : « ما يخيل إلي أني رأيت بالكوفة أحدا أفضله على محارب بن دثار » [٣] . وكما ترى كثيرا ممن ينسبون إلى البدعة مثبتة

---

(١) يعني الرسول ﷺ والشيخين .
(٢) أخبار القضاة ٣/ ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) أخبار القضاة ٣/ ٣٥ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢١٨ .

أحاديثهم في كتب السنة والمسانيد .

وجاء عن ابن أبي ليلى أنه كان يرى قبول رواية المبتدع ، وأنه كان يجيز شهادته ، كما سنرى إن شاء الله . ومن تعليله أن « الهوى شيء افتتن به رجل فأخطأ في ذلك ، فلا ينبغي أن نبطل شهادته ، وإنما دخلوا في الهوى لشدة المبالغة في الدين ، فإنهم عظموا الذنوب ، حتى جعلوها كفرا ، فيؤمن عليهم« الشهادة على غير وفق الحق والواقع [١] .

قال ابن خلدون : « وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان ، واختلاف الصحابة من بعد ، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة ...» [٢] .

فقوة الأحداث ، وأهوال الفتن قد تحجب الحق عن بعضهم فيزيغ ولا يتبين الحق إلا لمن ثبّته الله ، وفهم أصول الإسلام ، ووعى ملابسات الأحداث ، واستوعب الواقع الذي تجري فيه ، كحال عمار بن ياسر ﷺ الذي قال في السيدة عائشة ﷺ قبيل معركة الجمل : « اني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه ، أو إياها » [٣] .

وقد لا يتبين للمنصف وجه الصواب ، أو يظهر له الحق ويخشى عواقب الصدع به ، فيلتزم الحياد ، أو يستعمل التقية .

وصح أن اللذين عاشا أطول مدة في قضاء الكوفة ونالا احتراما من طرف الخلفاء والأمراء وعامة الناس على السواء **شريح** القاضي (حوالي ستين سنة)

---

(١) المبسوط ٢٠/ ٨٠ ، دار المعرفة .

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٨٠ .

(٣) جاء في صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضل عائشة < : أن عمارا خطب في أهل الكوفة ، لما جاء يستنفرهم فقال : « إني لأعلم ...» الحديث .

وصاحبنا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (حوالي ثلاث وثلاثين سنة) . ويشتركان في أن كلا منهما لم يسلك سبيل المواجهة العلنية للجهاز الحاكم ، إلا أن موقف شريح كان أكثر وضوحا من موقف ابن أبي ليلى ، فلقد اعتزل الأحداث التي وقعت بين المسلمين تورعا ، وابتعادا عن الشبهة ، وخوفا من الوقوع في الإثم دون أن يدري ، قال شريح في الفتنة التي كانت على عهد ابن الزبير ﷺ : « ما سألت فيها ولا أخبرت » ، وكان يقول : « وأنا أخاف أن لا أكون نجوت » . و«لبث ... في الفتنة تسع سنين لا يخبر ولا يستخبر ، فقيل له : قد سلمت ، قال : فكيف بالهوى؟ » [١] .

ومعنى هذا أن شريحا لم يظهر له الحق فاختار الحياد ، وجلس عن القضاء .

أما ابن أبي ليلى فالظاهر أنه يرى أن من بيده أمور المسلمين تجب طاعته ، سواء من هذا الطرف أو ذاك ، ولذلك سالم بني أمية ـ مع أن أباه عبد الرحمن قتل في دير الجماجم مع ابن الأشعث ، وجده أبا ليلى كان إلى جانب علي ﷺ في معاركه ـ وقام بمهمة القضاء على أحسن وجه . وعندما استولى العباسيون على الحكم ، واستقرت في أيديهم السلطة ، بعد أن أبعدوا العلويين : هادنهم أيضا ، وولوه القضاء ، فقام بالمهمة على غرار ما فعل في عهد بني أمية دون إحداث متاعب للسلطة الجديدة .

بضاعة قضاة الكوفة في الحديث :

وقضاة أهل الكوفة عموما **مقلون** غير مكثرين في الحديث ، إلا قليلا منهم كالشعبي . وهذا طبيعي ، فالقضاء له ارتباط بالفقه ، والغالب على فقهاء العراق في تلك الحقبة عدم التوسع في الرواية ، لأنها قد تشغلهم عن التبريز في الفقه والقضاء . روى وكيع عن هشيم قال : قال لي ابن شبرمة : « اقل الرواية تفقه » [٢] .

---

(١) ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ١٤٠ـ١٤١ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٦ . ونقل الذهبي فيه ٤/ ٤٠٣ فقال : «جرير عن مغيرة قال : عزل ابن الزبير شريحا عن القضاء فلما ولي الحجاج رده » .

(٢) أخبار القضاة ٣/ ٣٧ .

بل إن طائفة منهم ضعفاء عند أهل الحديث ، إما بسبب سوء الحفظ كابن أبي ليلى ، أو بسبب الإرجاء كمحارب بن دثار [١] ، أو التشيع كسعيد بن أشوع ، فبعض المحدثين لا يحتجون بحديثه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، أو بسبب الجهالة كسعيد بن نمران الناعطي ، فلقد وصفه الذهبي بالجهالة في « الميزان » ، وتبعه ابن حجر في « اللسان » [٢] ، ومثله الحكم بن عتيبة بن النهاس العجلي [٣] .

كيفية تعيين القضاة وإقالتهم وما يتعلق بذلك :

الظاهر أن القضاء بالكوفة ـ وغيرها من الأمصار الإسلامية ـ في تلك الحقبة كان مما يزهد فيه غالبا ، ولم تكن مهمة القضاء ـ غالبا ـ مما يكسب احترام الناس وإجلالهم وعطفهم ورضاهم [٤] ، أضف إلى هذا أن القضاء في حد ذاته ـ بغض النظر عن المكان الذي يمارس فيه ـ مسؤولية جسيمة وخطيرة ، تتطلب علما وفهما وفطانة وورعا ، ولا يضطلع بها على أحسن وجه إلا أولو العزم من العلماء ، فهي روض من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

وقد يكون هذا هو السبب في أن أكثر القضاة لم يكونوا من رؤساء فقهاء الكوفة ، إذا استثنينا شريحا ، ومسروقا ، وعبيدة السلماني [٥] ، والشعبي ، وابن شبرمة ، وابن أبي ليلى .

---

(١) قال فيه الذهبي : « وليس حديثه بالكثير » ، وقال : « وكان ثقة حجة » ، ونقل توثيقه عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين . سير أعلام النبلاء ٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨ .

(٢) ينظر ميزان الاعتدال ٢/ ١٦١ رقم ٣٢٨٦ ، ولسان الميزان ٣/ ٦٤ .

(٣) ينظر هامش أخبار القضاة ٣/ ٢٢ .

(٤) كان مختوما على خاتم سعيد بن أشوع : « اعداؤه أجب القاضي سعيد بن الأشوع » . ٣/ ١٨ من أخبار القضاة .

(٥) الظاهر من أخبار عبيدة أنه لم يتول القضاء إلا مدة يسيرة لم يستحق بها أن يصفه أهل التراجم بالقاضي ، لكنهم يذكرون أن شريحا كان أعلم بالقضاء ، وأن عبيدة يوازيه فيه . وأخرج ابن سعد وكذلك وكيع عن ابن سيرين قال : جاء قوم يختصمون إلى عبيدة ليصلح بينهم ، فقال : لا أقول حتى تؤمروني . كأنه يرى أن للأمير في هذا ما ليس للقاضي ولا لغيره . طبقات ابن سعد ٦/ ٩٤ ،=

ومن القضاة من تولى القضاء ، وكان لا يرغب فيه ابتداء كمحارب بن دثار ، ومنهم من رغب فيه ، لكنه طلب الإعانة من الله عليه ، كابن شبرمة . قال الحسن ابن عبد الله الضبي : « لما ولي محارب بن دثار أتيته ، وقد دخل المسجد فصلى ، قبل أن يجلس ، أربع ركعات ، ثم رفع يديه يدعو ، فقال : اللهم إن هذا مجلس لم أجئه قط ، ولم أسلكه ، اللهم فكما ابتليتني به فسلمني منه ، وأعني عليه ، ثم بكى حتى بل بدموعه خرقة كانت في يده ، ثم قال لي : أشامتا جئت أم معزيا ، قلت : بل جئت مسلما . ثم ولي ابن شبرمة فأتيته ، فلما دخل المسجد صلى أربع ركعات قبل أن يجلس ، فلما سلم قال : اللهم إن هذا مجلس كنت أشتهيه وأتمناه عليك ، اللهم فكما ابتليتني به ، فأعني عليه ، وسلمني منه ، ثم بكى حتى بل خرقة كانت في يده » [١] .

ومنهم من أكره على القضاء إكراها ، كحال منصور بن المعتمر ـ بعد ابن أبي ليلى ، حبسه ابن هبيرة أشهرا على القضاء يريده عليه ، فأبى . وقيل إنه أحضر قيدا ليقيده به ثم خلاه [٢] .

ومنهم من طلب الإعفاء من القضاء بعد أن ابتلي به : يذكر أن شريحا استعفى الحجاج فأعفاه [٣] ، وأن الشعبي طلب الإعفاء أيضا فأعفي [٤] . وكذلك يذكر عن

= وأخبار القضاة ٢/ ٤٠١ . وروى وكيع في أول حديثه عن عبيدة ، بسنده عنه أنه قال : « قال علي : اقضوا في الفتنة كما كنتم تقضون في الجماعة ، حتى يكون الأمر لي أو علي » . وفي رواية : « ارسل علي إلي وإلى شريح : اقضوا كما كنتم تقضون ، فإني أبغض الاختلاف » .

(١) أخبار القضاة ٣/ ٢٥ ـ ٢٦ . وانظر كذلك ٣/ ٣٧ ، وطبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٧ ، وكتاب المعرفة والتاريخ ٢/ ٦٧٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٥ ، ٤٠٦ . وقال العجلي في منصور بعد توثيقه : « أكره على القضاء ، فقضى شهرين » ، قال : « فيه تشيع قليل » . ينظر تاريخ الثقات للعجلي ص ٤٤٠ ، ٤٤١ رقم ١٦٣٩ ، وينظر حلية الأولياء ٥/ ٤٠ .

(٣) تاريخ خليفة ٢٦٩ وأخبار القضاة ٢/ ٣٩٢ .

(٤) أخبار القضاة ٢/ ٤١٣ .

أبي بردة أنه استعفى الحجاج فأعفاه [١] .

والملاحظ أنه باستثناء شريح وابن أبي ليلى ، فإن باقي القضاة كانت مدة إقامتهم على القضاء بالكوفة قصيرة . ومن النصوص التي تبرز هذه الظاهرة قول وكيع : « قال أبو حسان : حدثني بعض أهل العلم أن خالدا القسري عزل ابن أشوع ، وولى الحكم بن عتيبة بن النهاس العجلي ، ثم عزله ، وأعاد ابن الأشوع ، فمات قاضيا قبل عزل خالد ، ثم استقضى خالد عيسى بن المسيب البجلي ، أشار به أبان بن الوليد » [٢] .

ومن استقراء تراجم قضاة الكوفة يستفاد أن أسباب الانقطاع عن القضاء هي :

١ ـ الاستعفاء ، ويكون الدافع إليه إما التورع ، أو كبر السن ، أو عدم العلم بأهل البلد كما سيأتي .

٢ ـ الإقالة ، وتكون بسبب عدم الكفاءة [٣] ، أو إظهار العداء للنظام الحاكم [٤] .

٣ ـ الجلوس عن القضاء بسبب الفتنة ، وهي حالة القاضي شريح .

٤ ـ وحالة مسروق بن الأجدع أن زياد بن أبيه أخرج شريحا من الكوفة إلى البصرة للقضاء ، واستقضى مسروقا على الكوفة سنة ، ثم قدم شريح فأعاده [٥] .

وكانت العادة الغالبة أن القضاة يعينون من طرف ولاة البلدان ، ولا يحتاج الأمر في ذلك إلى أمر مكتوب من الخليفة ، بل إن القاضي كان لا يركب « مركبا ، ولا

---

(١) أخبار القضاة ٢/ ٤١٣ .

(٢) أخبار القضاة ٢/ ٢٢ ـ ٢٣ . وأبو حسان هو الحسن بن عثمان الزيادي القاضي ، قال فيه وكيع : « وكان أبو حسان فهما ، قد عمل الكتب ، وكان عالما بأيام الناس ، وحدث وكتب الناس عنه علما كثيرا ...» . توفي سنة ٢٤٣ ، وله تسع وثمانون سنة وأشهر . أخبار القضاة ٣/ ٢٩٢ .

(٣) ينظر مثلا أخبار القضاة ٢/ ٣٩٢ و٢/ ٤١٣ .

(٤) حالة عبد الرحمن بن أبي ليلى .

(٥) تاريخ خليفة ٢٤٨ .

يذهب في حاجة إلا إذا استأذن أمير البلد » [١] .

ولقد مر بنا في نص من أخبار القضاة لوكيع أن خالدا القسري استقضى عيسى بن المسيب البجلي بإشارة من أبان بن الوليد [٢] .

إلا أنه في عهد عمر بن الخطاب ﷺ نجد التنصيص على أن عمر هو الذي تولى تعيين عبد الله بن مسعود ، وعروة البارقي ، وشريح القاضي [٣] .

ويحكي وكيع أنه بعد مقتل عبد الله بن الزبير ﷺ قدم عبد الملك بن مروان النخيلة بعد أن استقر الأمر في يده سنة اثنتين وسبعين ، فقال : ما فعل شريح العراقي؟ قيل : حي ، قال علي به . فجاءه فقال : ما منعك من القضاء ؟ فقال : ما كنت لأقضي بين اثنين في فتنة ، قال : وفقك الله عد إلى قضائك [٤] .

ومما يتعلق بهذه الفقرة أن القضاة المعينين يكونون في الغالب من أهل الكوفة [٥] ، وهذا الاختيار من أهم شروط نجاح القاضي في مهمته : أن يكون ابن البلد ، يعرف أحوال الناس والواقع الذي يتحركون فيه . قال وكيع : « أخبرني إبراهيم بن أبي عثمان عن سليمان بن أبي منصور ، قال : حدثني أبو الموفق سيف بن حاتم قال : كان خالد القسري يحب أن يولي قضاء الكوفة رجلا من المدينة ، فقال لعيسى بن المسيب :

---

(١) أخبار القضاة ١/ ١٤١ . وينظر كذلك ١/ ١٨٤ .

(٢) ينظر أخبار القضاة ٣/ ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٧ ، وأخبار القضاة ٢/ ١٨٨ ، والاستيعاب ٣/ ١٠٦٥ . وتجدر الإشارة إلى أن القضاء كان قبل ذلك من الوظائف الداخلة تحت الخلافة ... يباشره الخليفة بنفسه ، وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر ﷺ ، وذلك لما اتسعت مهام الخلافة . ينظر تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

(٤) أخبار القضاة ٢/ ٣٩٧ـ ٣٩٨ .

(٥) بشرط أن يكون القاضي عربيا : في المعارف ص٤٤٦ : « قال أهل الكوفة : لا يصلح القضاء إلا لعربي » . وفي أخبار القضاة ٣/ ١٢٩ : « وكانوا لا يولون إلا عربيا أو مولى » .

قد وليتك ، قال : ليس لي بهم علم ، قال : إنما مدع ومدعى عليه ، فعلى المدعي البينة وعلى المدعى عليه اليمين . فولي . فكان إذا جاءه رجلان ، قال : أيكما المدعي؟ هات بينة . فجاءه رجلان ، قال كل واحد منهما : أنا المدعي ، فقال كل واحد منهما : داري في يدي . فقام من المجلس ، فدخل على خالد ، فقال : أيها الأمير ، قد أعلمتك أنه لا علم لي بالقضاء . فدعا خالد بعض المتفهمة ، فقال : ارجع إلى مجلسك ، فليس كل وقت يأتيك مثل هذا . قال : لا والله لا أرجع . فحينئذ ولى محارب بن دثار »[١] .

مجلس القضاء وما يتعلق به :

مكان القضاء هو **المسجد** ، هذه هي القاعدة . وكان شريح يقضي في المسجد ، وإذا كان اليوم مطيرا قضى في داره[٢] . وكان ابن أبي ليلى يقضي في المسجد[٣] .

لكننا نجد من بين القضاة من كان يقضي في داره ، كحال أبي بردة بن أبى موسى الأشعري[٤] .

وكانت القاعدة الغالبة أيضا أن يتولى قضاء الكوفة شخص واحد ، غير أن ابن سعد يروي بسنده عن الشعبي قوله : « كان على قضاء الكوفة قبل شريح عروة بن أبي الجعد البارقي وسلمان بن ربيعة»[٥] .

وقال ابن عبد البر : « استعمل عمر بن الخطاب عروة البارقي ، على قضاء

---

(١) أخبار القضاة ٣/ ٢٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ١٣٤ ، وأخبار القضاة ٢/ ٣١٦ . وقضى الحسن بالبصرة في الرحبة خارجا من المسجد (أخبار القضاة ٢/ ١٤) ، وقضى إياس بن معاوية في سوق البصرة (أخبار القضاة ١/ ٣٣٩) ، وفي الطريق (١/ ١٣٣) .

(٣) العلل ومعرفة الرجال لأحمد ١/ ٢٢٧ ، المكتب الإسلامي ، دار الخاني ، بيروت ، الرياض ، ١٩٨٨م/ ١٤٠٨ه .

(٤) أخبار القضاة ٢/ ٤١٢ .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤ .

الكوفة ، وضم إليه سلمان بن ربيعة ، وذلك قبل أن يستقضي شريحا »[١] .

وروى وكيع في أول حديثه عن عبيدة السلماني بسنده عنه أنه قال : « قال علي : اقضوا في الفتنة كما كنتم تقضون في الجماعة حتى يكون الأمر لي أو علي » . وفي رواية : «أرسل علي إلي وإلى شريح : ا قضوا كما كنتم تقضون ، فإني أبغض الاختلاف »[٢] .

وقد يجلس القاضي للقضاء ، ويجلس معه بعض الفقهاء لاستشارتهم : يروي وكيع أن الحجاج لما ولى أبا بردة بن أبي موسى أقعد معه سعيد بن جبير[٣] . ويروي أيضا أن محارب بن دثار جلس للقضاء ، وحماد والحكم : أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ينظر إلى الحكم مرة وإلى حماد مرة ، والخصوم بين يديه[٤] . وكان شريح يقضي ومعه أشياخ يجالسونه على القضاء ، منهم أبو عمرو الشيباني (سعد بن إياس الكوفي) ، والشعبي[٥] . وكان يشاور مسروقا[٦] .

ولقد كتب عمر بن الخطاب إلى شريح ، مبينا له المنهج الذي يجب اتباعه في القضاء ، قال : « اذا جاءك أمر فاقض فيه بما في كتاب الله ، فإن جاءك ما ليس في

---

(١) الاستيعاب ٣/ ١٠٦٥ . وجلس سوار بن عبد الله وعمر بن عامر السلمي جميعا على قضاء البصرة (أخبار القضاة ٢/ ٥٥) ، وكان عمر بن عامر يكلم الخصوم وسوار ساكت .

(٢) أخبار القضاة ٢/ ٣٩٩ .

(٣) أخبار القضاة ٢/ ٤٠٨ . قلت : ولذلك لما أراد الحجاج قتل سعيد بن جبير احتج عليه فقال : « الم أولك القضاء ، فضج أهل الكوفة ، وقالوا : لا يصلح القضاء إلا لعربي ، فاستقضيت أبا بردة وأمرته ألا يقطع أمرا دونك؟ قال : بلى » . المعارف ٤٤٦ .

(٤) أخبار القضاة ٣/ ٣٠ ـ ٣١ .

(٥) أخبار القضاة ٢/ ٢١٣ و ٢٢٦ ، وكتاب شرح أدب القاضي للخصاف ، تأليف الصدر الشهيد البخاري ١/ ٣٥٧ ، تح : محيي هلال السرحان ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٣٩٧ه/ ١٩٧٧م . وأبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٩٥ أو ٩٦ه : أدرك النبي ص ولم يره . تنظر أخباره في الإصابة ٢/ ١١٠ رقم ٣٦٧٠ ، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٦٨ .

(٦) أخبار القضاة ٢/ ٢٢٩ .

كتاب الله فاقض بما سن رسول الله ﷺ ، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ، ولم يسنه رسول الله فاقض بما أجمع عليه الناس ، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يسنه رسول الله ولم يتكلم به أحد ، فاختر أي الأمرين شئت : فإن شئت فتقدم واجتهد رأيك ، وإن شئت فأخره ، ولا أرى التأخير إلا خيرا لك » .

وفي رواية : « وإن شئت تؤامرني ، ولا أرى في مؤامرتك إياي إلا أسلم لك » [١] .

واختار شريح أن يؤامره فيما يشكل عليه [٢] . ومن الذين كان يرسل معهم الجواب عروة البارقي [٣] .

ولما أمر أبو جعفر المنصور شريك بن عبد الله النخعي (ت ١٧٧هـ) بأن يلي القضاء ، تعلل له بأنه لا يحسن القضاء ، فقال له أبو جعفر : « اذهب فأنفذ ما أحسنت ، وتكتب لي فيما لا تحسن » [٤] .

ومن الطرق الحكمية التي كان ينتهجها القضاة في مجلس القضاء : الوعظ والتخويف ، أعني وعظ الخصوم أو الشهود ، كما ذكر وكيع عن محارب أنه ذكر شاهدي زور بعقاب الله تعالى وعذابه ، فرجعا عن شهادتهما [٥] .

وكان شريح يقول للشاهدين : « إني لم أدعكما ، وإن قمتما لم أمنعكما ، وإنما يقضي على هذا الرجل أنتما ، وإني لمتق بكما فاتقيا » [٦] .

---

(١) أخبار القضاة ٢/ ١٨٩ ـ ١٩٠ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٠١ .

(٢) ينظر مثلا أخبار القضاة ٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣ . وينظر بعض ما كتب عمر إلى شريح في ٢/ ١٩١ و١٩٤ .

(٣) المعرفة والتاريخ ٢/ ٨٣٢ . ونحو هذا الكلام جاء عن ابن مسعود قال : «من كان منكم قاضيا فليقض بما في كتاب الله ، فإن جاءه ما ليس في كتاب الله فليقض بما قال رسول الله ﷺ فإن جاءه ما لم يقل رسول الله ﷺ فليجتهد ، فإن لم يفعل فليفر ولا يستحي » . أخبار القضاة ١/ ٧٦ .

(٤) أخبار القضاة ٣/ ١٥٠ ، وطبقات ابن سعد ٦/ ٣٧٩ .

(٥) أخبار القضاة ٣/ ٣٤ .

(٦) طبقات ابن سعد ٦/ ١٣٦ .

وفي رواية أنه كان يقول للشهود إذا اتهمهم وقد عدلوا : «إني لم أدعكما ولست أمنعكما إن قمتما ، وإنما يقضي على هذا أنتما ، وإني إنما أتقي بكما فاتقيا على أنفسكما » . فإذا أبوا إلا أن يشهدوا وقد عدلوا قال للذي يقضي له : « أما والله إني لأقضي لك ، وإني لأرى أنك ظالم ، ولكن لست أقضي بالظن ، إنما أقضي بما يحضرني من البينة ، وما يحل لك قضائي شيئا حرمه الله عليك ، انطلق » [١] .

مراعاة المصالح ، وإن كانت مرسلة ، واستعمال النباهة والفراسة ... كل ذلك كان منهجا شائعا عند قضاة الكوفة ، ولم يكن القضاء يقتصر على الظواهر : البينات والأيمان ... كما هو مذهب الشافعي الذي نصره أتم نصر في مجموعة من كتبه . روى وكيع عن ابن سيرين ، قال : قال ابن هبيرة : « لا يصلح للقضاء إلا الفهم الورع العالم » [٢] .

وروى ابن سعد بسنده عن ابن سيرين ، قال : أول من سأل في السر شريح ، فقيل له : يا أبا أمية ، أحدثت ، فقال : إن الناس أحدثوا فأحدثت [٣] . وأوجب شريح اليمين على الطالب «المدعي» مع بينته ــ وهو القضاء عند ابن أبي ليلى كما سيأتي ؛ والقاعدة أن عليه البينة فقط . ورأى أبو عبيد أن شريح فعل ذلك « حين رأى الناس مدخولين في معاملتهم ، واحتاط لذلك ...» [٤] .

وسأل ابن أبي ليلى البينة على كتاب القاضي إلى القاضي ، فكان أول من فعل ذلك [٥] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ١٣٣ .

(٢) أخبار القضاة ٣/ ٥٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ١٣٣ .

(٤) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم ، شرح ومراجعة : إبراهيم رمضان ، دار الفكر ، بيروت .

(٥) ينظر صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب الشهادة على الخط المختوم ، وهو المكان الوحيد من صحيح البخاري الذي ذكر فيه ابن أبي ليلى ، فليس له رواية في الصحيحين .

أجر القاضي :

كان القضاة يرزقون من بيت المال ، هذه هي العادة الغالبة ، ومنهم من كان لا يأخذ على القضاء أجرا ، كان يعتبره عبادة ، ومن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

روى ابن سعد بسنده عن ابن أبي ليلى ، قال : « بلغني ـ أو بلغنا ـ أن عليا رزق شريحا خمسمائة» [(١)] . وقال عبد الملك بن مروان لشريح ، بعد أن أمره أن يعود إلى القضاء : « فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم ، وثلاثمائة جريب » [(٢)] .

وقال يوسف بن عمر لا بن أبي ليلى : « قد وليتك القضاء بين أهل الكوفة ، وأجريت عليك مائة درهم فاجلس لهم بالغداة والعشي ، فإنما أنت أجير للمسلمين » ، وفي رواية أنه أجرى عليه مائة وخمسين درهما في كل شهر . وفي رواية أنه قال له : « إنما أنت أجير للمسلمين ، فابرز للناس غدوة وعشية » [(٣)] . وكان رزق ابن شبرمة وهو على القضاء مائة درهم [(٤)] . وقال حفص بن غياث بن طلق قاضي الكوفة ـ بعد ابن أبي ليلى وأقرانه ـ وبغداد أيضا : « والله ما وليت القضاء حتى حلت لي الميتة » [(٥)] .

أما مسروق والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود فكانا لا يأخذان على القضاء رزقا . وكان مسروق يتأول الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة:١١١] الآية [(٦)] . وكان القاسم لا يأخذ على القضاء أجرا ، فلعله

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ١٣٨ . وكان ذلك في كل شهر . أخبار القضاة ٢/ ٢٢٧ .

(٢) أخبار القضاة ٢/ ٣٩٨ .

(٣) أخبار القضاة ٢/ ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٤) أخبار القضاة ٣/ ٩٠ .

(٥) تهذيب التهذيب ١/ ٤٥٨ ، مؤسسة الرسالة ، ط١/ ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

(٦) ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٨٢ ، وأخبار القضاة ٢/ ٣٩٨ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٦٨ ، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤١٤ ، مؤسسة الرسالة . قلت : لأن في الآية : ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ .

أيضا كان يعتبر القضاء عبادة ، لأنه نقل عنه كذلك أنه كان لا يأخذ أجرا على قراءة القرآن ولا على الأذان [١] ، وكذلك القاسم بن معن ـ وهو من طبقة تلاميذ بن أبي ليلى ـ كان لا يأخذ على القضاء أجرا [٢] .

وإذا علمنا أن النصاب في زكاة العين هو مائتا درهم تبين لنا المستوى المعيشي لقضاة تلك الفترة من تاريخ القضاء بالكوفة .

والله الموفق للصواب .

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٠٣ ، وأخبار القضاة ٣/ ٧ . قلت : وهذه العادة لا تقتصر على الكوفة ، بل تعم الأقطار الإسلامية الأخرى ، فلقد ولى عمر بن عبد العزيز عندما قدم المدينة رجلا أمر القضاء ، وأجرى له في الشهر دينارين . أخبار القضاة ١/ ١٣٤ . وكان رزق سوار بن عبد الله بالبصرة مائتي درهم . السابق ٢/ ٨٦ . وكان الحسن ـ بالبصرة أيضا ـ لا يقبل على القضاء أجرا . السابق ٢/ ٨١١ . ومثل الحسن عثمان بن طلحة ، قاضي المدينة . السابق ١/ ٢٢٩.

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٨٤ ، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٢٢ . مؤسسة الرسالة .